جامعة تلمسان

معهد اللغات
و الادب العربي
تلمسان

رسالة لنيل شهادة الماجستير

شخصية البطل في رواية:
"المرأة و الوردة" لمحمد زفزاف

اعداد الطالبة :
حوايجي سعاد

اشراف الاستاذ الدكتور
شايف عكاشة

السنة الجامعية
1993 - 1994

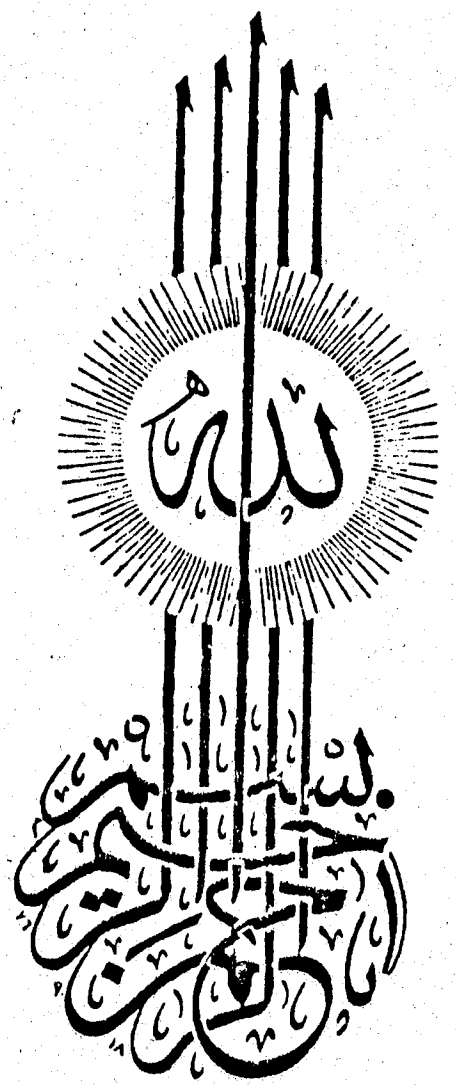
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

الـى ولـي نعمتـــي .. الـى مـن ضحى بكـل غـال ونفيـس
في سبيـــل نجـــاح حيـاتـي .. الـى والدي العزيـز ..
أتمنـــى لـــه طـــول العمـــر.

الـى مـــن كـانت خيـــر مرشـــد ، وخيـر نصيـــــــح ..
لي أمي .. أتمنـى لهـــا الصحـــــة و العـافيـــة ..

الـى مـن كـــان معـي فـي كـل خطـوات هـــذا البحث ..
بكل تشجيـع وحمـاس ..
الـى زوجـــي العـزيـــز ..

الـى أخـواتي واخـواني ، علـى مـا قـدمـوه لي ..
مـن تشجيعـات معنـــويـــــة ..

الـى ابنتـي الصغيـــرة : ســـارة

اليهـم جميعـــا أهـدي ثمـرة هـذا الجهـد

شكـــر و تـقـديـــر

الـى مـن وجهني الى الصواب بتوجيهـاتـه القيمـة .. والـذي ساعدني في انجـاز هـذا البحث .. الـذي لم يبخـل بثقـافتـه ولا بوقتـه .. ولا بالاخـذ بيـدي .. كلمـا زلت قـدمي .. فـلا يسعنـي الاّ أن أنـوه بجهـده ولطفـه وصبـره .. علي طيلـة المـدة التي قضيتهـا معـه .

بكـامـل احترامـاتي وتقـديـراتي .. أهـدي لـه بحثي المتواضـع الـى أستـاذي الجليل السيـد :

شـايـف عكـاشـة

كمـا أشكـر الاستـاذ **مرتـاض محمـد** على الجهـد الذي بـذلـه في تقـويـم مـا عـوج في بحثي وتوجيهي ..

وأشكـر الاستـاذ **مرتاض عبد الجليـل** الذي أمدني بكل مساعداتـه

وأشكـر ادارة المعهـد التي ساعدني مسؤولهـا في عملي ، دون أن أنسى موظفـات المعهـد ، وكـل مـن قـدم لـي يـد العون .. فلهـم جميعـا .. جـزيـل الشكـر

واللـه ولي التـوفيـق

المقـــد مـــــــة

ليس من الامور السهلة أن نقرر - في البداية - ما سيؤول اليه بحث لم ينجز بعد ، بمعنى القيام باستشراف أولي لأفكار ، بعضها كانت في طور المخاض مع أنني أومن بأن طبيعة الممارسة الادبية هي المغامرة التي تحمل صاحبها الى قلق الكتابة ولذتها ، لذلك سأقبل التحدي لأعلن بداية المغامرة .

ولعل من بين الصعوبات التي تقف حجرة عثرة في وجه أي باحث ، وهي كثيرة ومتنوعة ، وقد تسهل وتصعب ، حسب امكانات وقدرات الباحث المتوفرة لديه ، ومن بين هذه الصعوبات التي تتجلى في جمع المادة والبحث المستمر عن المراجع التي أفادتني في انجاز هذا البحث .

ولكن لا يستطيع أن يتحدى أو يتخطى هذه الصعوبات والعوائق الاّ الباحث المتبصر الصبور ، المتسلح بوسائل مدعمة ، قادرة على ايصاله الى شاطئ الامان .

يدخل الموضوع - الذي أحاول أن أتناوله - ضمن النقد الادبي المعاصر ، والنقد المغربي بخاصة ،

وهـو بعنـوان (شخصيـة البطـل في روايـة " المرأة و الوردة " لمحمـد زفـزاف)

وكـان اختيـاري لهـذا الموضـوع بـدافـع شخصـي - من جهـة - ولكوني طـالبـة مغربيـة - من جهـة أخـري - ارتـأيت أن أدرس هـذا الموضـوع ، قصـد تعريف الادب المغربي المعاصر للطلبـة والبـاحثيـن ا، في بـلـد ي الثـاني (الجزائـر) .

وانطـلاقـا مـن المعطيـات المنهجيـة التي نقترحها فـاننـا نعتبـر فهـم طبيعـة الموضـوع الـذي وضعنـاه للـدراسـة يقتضي منـا اختيـار المنهـج التحليلي ، ليس مجـرد رغبـة في التجـديـد ، ولكنـه يرضي النزوع نحو دراسة للادب ، تقـارب في وسائلها المستخـدمـة ، ونتـائجهـا، جـديـة البحث العلمي الـذي يمـارس في العلـوم التطبيقية ولانستطيـع القـول هنـا بـأن هـذا المنهـج قـد وصـل بالدراسة الادبيـة الى هـذا المستـوى العلمي الـدقيـق ، لأن ميدان الـدراسـات الانسـانيـة سوف يبقى دائمـا ، متميـزا بقـانونيتـه الخـاصـة ، ولكـن المنهـج التحليـلي يعبـر عـن مستـوى متقـدم بالنسبـة للمنـاهـج الوصفيـة ، فهـو يقتـرب مـن الروح العلميـة لطبيعـة العـلاقـة الموجـودة بيـن الابـداع الادبي و الـواقـع الاجتمـاعي .

بل ان هذا المنهج يستوعب جل جهود وأنماط النقد الادبي المعاصر ، بمافيها الاتجاه البنيوي ، ويترك نفسه مفتوحا لامكانية الاستفادة من الدراسات الجمالية التي تهتم بالبنى الداخلية للاعمال الادبية .

كما أن هذا المنهج يرى أن الوصول الى المضمون الايديولوجي للاعمال الادبية لا يتحقق الا مرورا بعملية تحليل البناء الشكلي في الانتاج الادبي ، ومع ذلك، فهو لا يقف عند هذا الحد ، مثلما تفعل المناهج البنيوية الحديثة ، وانما ينتقل الى مستوى الفهم الايديولوجي والاجتماعي .

واذا كانت الدراسات التحليلية قد اتخذت في الغرب أبعادا جديدة ، اعتمادا على فهم يقارب درجة الادراك العلمي لدور اللغة والتركيب الخيالي ، واستطاعت المناهج النقدية - تحت هذا الاطار - أن توفر وسائل جديدة وفعالة للكشف عن البنى الداخلية للنصوص الادبية ، فان الاستفادة من هذه الدراسات والمناهج تصبح أكيدة وضرورية في أثناء القيا م بتحليل الرواية التي سنتناولها بالدراسة .

ونستطيع القول من الآن ، أننا لا ندعي استحضار جميع التقنيات التي يستخدمها المنهج التحليلي، فمثل

هـذا الامـر يتطلب - في نظرنـا - فهمـا متكـاملا للخطوات التي قطعتهـا المنـاهج في الغرب، وهذا يستلـزم سنوات أخـرى مـن الدرس ، خصوصا وأن بعض هذه المناهج لا زالت في طور التكويـن كمـا أن الدراسـات التطبيقيـة التي صدرت في هـذا المجـال لا تزال تعـاني مشكلـة تـأسيس المصطلحـات الثابتـة .

على أن بقـاء هـذه الدراسـة في حـدود الاستلهـا م العـام للمنهـج التحليلي تفرضـه علينـا طبيعـة موضـوعنا فالتحليـل الدقيـق للبنيـة الداخليـة في المتـن الروائي يفتـرض منهجيا الاقتصـار في الدراسـة على نص روائي واحد أو نصيـن على أكثـر تقـديـر ، والتي رأينـا أنهـا قـابلـة لأن تكـون ميـدانـا للبحث .

وبنـاء على خطـة فرضتها طبيعـة الموضـوع ، جـاء البحث في شكـل ثـلاثـة فصـول :

- تنـاولت في الفصـل الاول الروايـة المغربيـة (نشأتهـا وتطورهـا) ، وكيف استطـاعت هـذه الروايـة ، في مسيرتهـا القصيـرة زمنيـا - أن تحقق تراكما - ولو نسبيا - ، تجلى في مجمـوع الروايات التي صدرت حتى الآن في المغرب ، أمـا مضامينهـا فلـم تكـن تتعـدى همـوم البورجوازيـة الصغيرة ، التي عرفت ظـرفـا مميـزا في المغرب ،

- أمـا في الفصـل الثـاني ، فقـد تعرضت لمفهـوم الشخصية

بصفة عامة ، ومفهومها في النقد العربي بصفة خاصة . وقد رأيت أن أمهد لهذا الفصل باعطاء صورة مفصلة عن المفهوم العام للشخصية (كمفردة) في اللغة ، وعند علماء النفس والاجتماع ، وأوردت تعاريف لبعضهم ، ثم عدت الى الشخصية ، من حيث هي أساس أي عمل أدبي ، فوضحت أنواعها وعلاقتها بالمجتمع ، مستندة في ذلك كله الى آراء النقاد والدارسين .

- وفي الفصل الثالث ، تعرضت الى دراسة وتحليل رؤية رواية (المرأة و الوردة) ، مركزة على بنية الشخصية الاولى فيها ، وما عانته من تشرد ومرارة واحباط في أحضان الغرب الذي لجأت اليه ، قصد الهروب من واقعها المزري في المغرب

- ثم ختمت هذا البحث برؤية تضمنت الطابع الانتقادي للعالم الروائي المغربي عامة وروايات محمد زفزاف بخاصة وهي رؤية ، وان تمظهرت بطابع الانتقاد فهي تستحق الكثير من النقاش .

انها محاولة ، أعتقد جازمة أنها في بدايتها وبدون تفاعل القارئ ، التفاعل المناسب معها ، نقاشا وبحثا وتطويرا ، لايمكنها الاّ أن تنغلق على ذاتها ، وتكون صيحة في واد .

وآن الأوان لنقدنا الروائي ، والنقد الادبي عموما ، أن يضطلع بمهامه في تطوير قراءتنا ووعينا بالذات والموضوع في سياقاته الثابتة والمتحولة ، وذلك لا يمكن أن يتحقق الاّ عن طريق الحوار المؤسس لجدل الفعل والتفاعل .

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

الرواية العربية المغربية

نشأتها و تطورها

أ - نشأة الرواية العربية وتطورها

ب - نشأة الرواية العربية المغربية وتطورها

أ - نشأة الرواية العربية وتطورها :

استطاعت الرواية العربية - على الرغم من حداثة سنها - أن تشكّل لحظة وعي جدلي بين الذات والواقع لدى الانسان العربي ، بل استطاعت أن تكون " قصة المجتمع والانسان في حالة تفاعل وتغير ، تخوض وجوده من الداخل"(1) وبعبارة أخرى استطاعت أن تكون محطة تقاطع آلام وآمال هذا الانسان العربي .

وقد ظهرت الرواية في العالم العربي ، في عصر النهضة استجابة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية عرفتها القوى الشعبية ونخبة من المثقفين العرب ، وهذا حصيلة حاصل في الترجمة والطباعة ، وانتشار التعليم ، فضلا عن البعثات الطلابية الى الخارج .

ان مما لا شك فيه أن الاساليب الفنية مأخوذة من أساليب بناء الرواية الحديثة في أوربا . وهذا يدل على طبيعة علاقة المثقفين عامة ، والكتاب خاصة بالثقافات الاوربية . وهذا - أيضا - ما أثر على الاساليب اللغوية العربية التقليدية ، حيث صار الاستخدام اللغوي سهلا ، وفي متناول الناس أو القراء ، بعد أن كان

---

1 - حليم بركات - الرواية العربية ورؤية الواقع الاجتماعي - د. م. ط 2 - سنة 1980 - ص : 30

محصـــور في دائـــرة الاستخـدامـات البـلاغيـــة و البيـانيـــة .

وهـذا مـا نـلاحظـه عند المويلحي في (حديث عيسى بـــن هشـــام) ، ذلك الـرجـل المتديـــن ، المحـــافـظ ، الذى رأى ، في الحفـــاظ على اللغـــة ، حفـاظـا على التـراث العربي . كمـا نـلاحـظ الطـابـع التعليمي في روايـات جـورجـي زيـــــدان التـاريخيـــة . غيـر أن جـل الـدارسيـــن رأوا أن البـدايـة كـانت مـع روايـة (زينب) لحسيـــن هيكـل ، وهـذه البـداية هي في الـوقت ذاتـه ، جـزء مـن البـدايـات العـامـة للرواية العـربيـــة (1)

لـم تـول الروايـــة العـربيـــة - في بدايـة نشـأتهـــا - أهميـــة للجـوانب الفنيـــة ، بقـدر مـا سعت الى تحريـــر الـواقـع ونقـد عيـوبـه ، كمـا عـالجت قضايـا اجتمـاعيـــة محليـــة ، كالاقطـــاع في روايـة (المعذبـون في الارض) لطـــه حسيـــن ، والتبـايـــن الاجتمـاعي في روايـة (الارض) لعبـد الرحمـــن الشرقـاوي ، فضـلا عـن الصـراع بيـن الحضـارتيـــن الـذي شخصتـه روايـة (عصفـور مـن الشـرق) لتوفيق الحكيـــم ، وروايـــة (موسـم الهجـرة الى الشمـــال) للطيب صـالـح . مما يعني أنهـــا واكبت ظـاهـرة التخلف التي عـانى - ولا يزال يعاني - منهـا المجتمـع العربي .

لقـد أعلنت الروايـــة العربيـــة - بعـد الخمسينـــات - انتمـاءهـا لـواقـع المجتمـع العربي ، ممـا جعلهـا تنتقـل الى

---

1 - انظر : الرواية العربية ، واقع وآفاق - تأليف نخبة من الروائيين العرب - دار ابن رشد - بيروت - 1981 - ص : 17 - 36

العمل النضالي ، ومن ثم تصبح أكثر ثورية مع روائيين آخرين ، من أمثال غسان كنفاني في رواية (عائد الى حيفا) .

ولعل مقاومة الاستعمار ، أو الدعوة الى تحرير الوطن العربي من قيود الاحتلال ، كان حافزا أساسيا لايقاظ الوعي العربي ، الذي استمر الى ما بعد الاستقلال ، وذلك لاستمرار الصراع الطبقي والتناقضات الاجتماعية في الكيان الاجتماعي العربي .

لعل هذه الوضعية ، هي التي دفعت بالروائيين العرب الى انتهاج الواقعية الاشتراكية ، لابراز الشرائح الاجتماعية المسحوقة ، كما هو الحال في رواية (اللا ز) للطاهر وطار ، و(نجمة أغسطس) لصنع الله ابراهيم ، و (الزيني بركات) لجمال الغيطاني ، و (شرق المتوسط) لعبد الرحمن منيف ، و (الكرنك) لنجيب محفوظ ، و(نجران تحت الصفر) ليحي يخلف ، و (الحرب في بر مصر) ليوسف القعيد ، و (انهم يأتون من الخلف) لبراء الخطيب ، و (السكن في الادوار العليا) لرفعت السعيد :::: وغير ها من الاعمال الروائية التي تبنت المذهب الواقعي الاشتراكي(1)

أما من الناحية الفنية فالرواية العربية بدأت في شكل سيرة ذاتية ، كرواية (الايام) لطه حسين

---

1 - للتوسع انظر : الرواية العربية ، واقع وآفاق - ص : 91 - 108

وروايـــة (سـارة) لعباس محمـود العقـاد ، وروايتـــي (ابراهيـم الكـاتب) و (ابراهيـم الثاني) لعبد القـادر المازني

كمـا بقيت الروايـة العربيـة - لمدة طويلـة - تتسـم بالطـابـع الذي يتميـز بالوصف الانشائي المفـرط ، المنفصـل أحيـانـا ، عـن السيـاق العضوي للمعمـار الفني للروايـة ، فضلا عـن وجـود حلـول معـدة أو جـاهـزة سلفـا ، للقضـايـا المطروحة في مطلـع الروايـة .(1)

ثـم تغيـرت الروايـة تـدريجـا مـن هـذا النمـط التقليـدي حيث لـم يعـد الغـرض مـن الكتـابـة هـو التسليـة بالقصص الخرافيـة بقـدر مـا صـار الغـرض منهـا تحقيـق حـالـة الالتحـام بيـن كـل القـوى القـادرة على الحيـاة وتحريـض الانسـان ، ليتجـاوز الوحـش الكـامـن في أعمـاقـه .

كمـا لـم تعـد الروايـة العربيـة تحفـل بالاتجـاه الرومـانسي ، الـذي كـان يتـزعمـه كـل مـن يـوسف السبـاعـي ، واحسـان عبـد القـدوس ، ولا بالاتجـاه التقريـري المبـاشـر الـذي ارتـداه عبـد الرحمـن الشرقـاوي وحنـامينـة ، وغيرهما (2)

لقـد كـان لزامـا على الروائي العربي أن يغيـر أدواتـه ولغتـه ورؤيتـه ليقتـرب أكثـر مـن هـذا الـواقـع ، ويجعـل مـن الروايـة أداة معـرفـة ونقـد .

---

1 - المرجع السابق - ص : 20 - 36

2 - المرجع نفسه - ص : 91 - 103

كانت مرحلة الستينات أخصب مرحلة حملت الرواية عبرها مشعل التحرر ، بما نشرته من وعي " اذ بدأت تظهر كتابات روائية جديدة تتميز بحساسية مغايرة للحساسية الرومانسية التي طبعت أعمال جيل الرواد والمؤسسين " (1) .

دخلت الرواية العربية السجون والحارات الشعبية ، لتنقل الوضع المتردي ، أو المتعطش الى الحرية ، ومن ثم كانت صورة نموذجية للقمع الذي كان يمارس داخل السجون ، والقهر الذي يعيشه المعتقلون وراء القظبان .

غير أن الرواية العربية ستشهد نمطا مغايرا ، يعتمد البناء والهدف ، ويثور على النموذج التقليدي الذي كان يسود الرواية الكلاسيكية . وفي هذا اشارة واضحة الى مأساة 1967 التي عاشها كتاب هذا الجيل ، وكان معظمهم في شرخ الشباب ، " فزلزلت كيانهم وأعطتهم - وهم في أشد حالات اليأس والاحباط - العزيمة على مواصلة المسيرة ، والمشاركة في معركة التحرير و البناء . لقد أخذ هذا الجيل على عاتقه التعبير عن مرارة الشعب والشباب خاصة ، وضياعه في الحاضر ، وعن تطلعه وأحلامه في المستقبل ، وعن احرازه على تغيير الواقع الأليم ، وتجاوز لتجربة المريرة " (2) .

---

1 - محمد برادة - الملحق الثقافي - عدد: 191 - الأحد 30 غشت 1987 ص : 5

2 - مجلة فصول - م 2 - ع4 - سنة 1982 - ص : 197

فقد كان وقع الهزيمة قويا على الانسان العربي المحصور في أسر الحرمان والاستلاب ، مما جعله يحاول أن يبحث عن أسباب هذه الهزيمة ، فكانت النتيجة أنه اقتنع بأن الهزيمة لم تكن هزيمة عسكرية عادية وانما كانت هزيمة حضارية و قيم ومفاهيم بأكملها .

والواقع أن هذا الانسان العربي كان أسمى من الهزيمة بالرغم من عمق لذغتها ونزيفها الدامي . فعلى أنقاض الهزيمة ونبض المستقبل اندفعت طلائع فكر جديد وكانت أسئلة ما بعد الهزيمة بحق أسئلة نهضة ثانية (1)

لقد تخلخلت مواقع طبقة حاكمة بكل ارثها الحضاري وتشخيصاتها الاجتماعية (وهي في غالبيتها امتداد للطبقة التي ساهمت في النهضة الاولى) ، وبالمقابل بدأت في الصعود طبقة جديدة أساسا ، من الفئات البورجوازية الصغيرة التى أفجعها وقع الهزيمة (2)

---

1 - عبد الله العروي - أزمة المثقفين العرب - ترجمة ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر - عام 1977 - ط 1 ص : 93 - بيروت

2 - بشير بويجرة محمد - الشخصية في الرواية الجزائرية (1970 - 1983) - ص : 27 - 43

ان مما لا شك فيه أن من مادة القمع الممزوج بالرفض النازف ، الذي كان امتدادا لعمق الواقع الذي أفرزته الهزيمة ومعاناتها ، ظهرت الرواية العربية الجديدة كمعادل فني ، لايصور الهزيمة فحسب ، بل يعيشها ، ويتجرع مرارتها واحباطاتها ، كما كانت صورة الهزيمة في الرواية العربية في شكل مسرحية تئز انكسارا، وتفوح توجعا ، أبطالها فئة من المثقفين المتأرجحين بين الرفض والهروب .

على أن الشئ الذي ينبغي الاشارة اليه هو أن الهزيمة لم تكن هزيمة للأمة العربية بقدر ما كانت هزيمة طبقة معينة ، داخل المجتمع العربي ، سقط عنها القناع، فكشفت عارية ، حيث أصبحت مجردة من كل سلطة الا سلطة القمع تقول شخصية كامل : " الشعب العربي ليس مسؤولا ، ولكنهم حكامنا فقط الذين خاضوا المأساة ، وكانوا فرسانها، أما نحن فلم يعطونا غير دور المتفرجين " (1) .

وعلى العموم فقد يسهم في تجلية الحقيقة ، أو الاقتراب منها في هذه القضية ، ما نورده موضحا ، ملخصا في أمرين اثنين : (2)

---

1 - عبد الرحمن مجيد الربيعي - رواية (الانهار) دار العودة - بيروت - ط2 - ص : 24

2 - حسني نصار - صور ودراسات في أدب القصة - دار مصر للطباعة - القاهرة - د . ت - ص : 10

أولا - ينبغي أن نحدد مفهوم الرواية : أهي الاحداث التي تطلع عليها وتنقل الينا ؟ أم هي سرد فني جمالي لمايتخيله الكاتب من أحداث يتصورها ، وقعت أو لم تقع ؟

فاذا قلنا انها الاحداث التي يرويها الروائي فقط ، ففي هذه الحالة يمكن القول ان جذورها قديمة ، قدم الحكايات لذى كل الأمم والشعوب . واذا قلنا انها عملية ابداع فني بعيد عن الاحداث الفعلية في صورتها المادية أو التاريخية ، فانها تصبح حرفة أو صناعة فنية ، تخضع في بنائها للتأثر من الآداب الاخرى . و يعد هذا المفهوم حديثا نسبيا ، في فن الرواية العالمية ، ومن ثم فاطلاق اسم الرواية على ماقبل ذلك هو تجاوز في المصطلح ، أو هو اطلاق مجازي .

ثانيا - اذا رجعنا - قليلا - مع التاريخ ووقفنا عند بداية نهضتنا الادبية المعاصرة لنتأمل موقف الرواد في معادلة النهوض والبعث ، ألفينا أشعة من الضياء قد تنير لنا منعرج الطريق الموصل الى اشكالية نشأة الرواية العربية الحديثة بين التطور والتأثر ، وهذا ما سبقت الاشارة اليه في مطلع هذا الفصل . (1)

---

1 - للتوسع انظر : ميخائيل باختين - الخطاب الروائي - ترجمة محمد برادة - منشورات جامعية للبحث العلمي - الرباط - 1971 - ص : 12 - 20

ب - الرواية العربية المغربية : نشأتها وتطورها

كان لطبيعة التفاوت في التطور الاجتماعي للدول العربية دور في ظهور الرواية في هذا البلد دون ذاك ، كما كان للقاء اللامتكافئ ، مع الغرب دور هام في هذا التفاوت أيضا . والرواية في المغرب ، عرفت تشكلها بعد فترة من المخاض ، حيث لم تشذ عن مثيلتها في المشرق العربي .

كانت المرحلة الاولى مرحلة القراءة للاعمال الغربية بواسطة نخبة من المثقفين ، اتصلت بالادب الغربي ، وترجمته ، مقلدة الاعمال الروائية ، ثم في المرحلة الاخيرة ، شرعت هذه الفئة في التأليف والابتكار .

ليست الرواية المغربية - بوصفها جزء من التراث الحضاري العربي العام - ضاربة الجذور في الادب المغربي ، بل هي لا تتجاوز خمسة عقود منذ بدايتها الفعلية ولذلك فهي ما تزال قيد التبلور والتكوين . كما أن واقع الازدواجية المترتب على العهد الاستعماري انعكس على مستوى التعبير ، مما أعطانا أدبا مكتوبا بالعربية وآخر مكتوبا بالفرنسية . مع الاشارة الى أن أول انتاج

روائي مغربي ، هو رواية (ادريس) التي كتبها صاحبها باللغة الفرنسية (1) .

ولما كانت طبيعة بحثنا تقتضي منا أن نتحدث عن الرواية المغربية المكتوبة بالعربية ، فانه كان لابد علينا أن نتساءل : كيف نشأت الرواية المغربية ؟ وهل حققت تراكما على المستوى المعرفي والجمالي ؟

ان مما لا ريب فيه ، أن الرواية المغربية المكتوبة باللغة العربية ، لم يكتب لها الظهور لتتبوأ مكانتها الى جانب الانواع الادبية الاخرى الا مع بداية الخمسينيات ، وكان أسبقها رواية (في الطفولة) لعبد المجيد بن جلون ، التي كتبها في نهاية الاربعينيات. وقد اتخذت هذه المحاولة شكل السيرة الذاتية ، وذلك بالرغم من انها حاولت تقليد الرواية الغربية. وهذا ما أكده أحد النقاد بقوله : ان الرواية المغربية قد وجدت نتيجة التأثر بالغرب ، حيث " أثمر اللقاء المفروض مع الغرب وحضارته نتائجه الايجابية والسلبية في الخمسينات والستينات ، وظهرت الرواية المغربية لتعبر عن وعي وطني بورجوازي بأوضاع بلادنا الاجتماعية والتاريخية والفكرية " (2) .

---

1 - ادريس الناقوري - الرواية المغربية ومشكلاتها الفنية والمفهومية مجلة أقلام - ع6 - س 1977 1 ص : 18

2 - المرجع نفسه 1 ص : 18

كما يبدو تأثر الرواية المغربية العربية بالرواية العربية المشرقية واضحا ، وخصوصا بأعمال نجيب محفوظ . وقد أوجز عزالدين التازي معطيين اساسيين صاحبا ظهور الرواية المغربية ، وهما : (1)

1 - فترة الستينات ، كتحديد زماني تاريخي . وهذه الفترة تعني الصراع السياسي بين الفئات الاجتماعية المتضررة من استغلال المغتصب وبين الفئات التي ظلت تقود التوجه الرأسمالي الوطني منذ عهد الحماية . ومن ثم برزت الفئات الاجتماعية المحرومة لتعبر عن غضبها وتمردها وخروجها عن التقهقر من جديد كما كانت في مرحلة الاستعمار . وفي هذا السياق التاريخي ظهرت الرواية المغربية .

2 - انتماء معظم كتاب الرواية في المغرب الى الطبقة البورجوازية الصغيرة أو المتوسطة .

وقد أثر هذا الانتماء في جعلهم ينطلقون في رؤاهم ومواقفهم المعبر عنها في عمل أدبي من منظور فكري لم يتخلص من رواسب الماضي ليحقق الوعي المتقدم .

وعلى العموم فان الرواية في المغرب ، والعالم العربي قاطبة ، حديثة النشأة ، اذا نحن قارناها بالاشكال الفنية الغربية ، مما جعل الفضول يتسرب الى الروائيين العرب عامة والمغاربة خاصة ، وذلك بالملاحظة المستمرة للاشكال الفنية الغربية

---

1 - عزالدين التازي - مقال في كتاب : الرواية العربية ، واقع وآفاق - ص : 231

بدأت الرواية المغربية متعثرة ، حيث أبانت عن عدم استطاعتها التعبير عن القطاعات العريضة من الشعب . وهي وان حاولت أن تفعل ذلك فانها لم تتجاوز تكريس الوضع الطبقي السائد.

كما أن عدم الاطلاع على التجارب الروائية العربية والغربية عند أغلب كتاب الرواية في تلك المرحلة ، جعل تلك الروايات تتسم بضعف البناء الفني ، وهذا ما أكده محمد عز الدين التازي بقوله : " قد نتج عن غياب هذا الوعي الثقافي والنقدي ، وعدم الاستئناس ببعض الجوانب المضيئة في تجربة الرواية العالمية ، على مستوى الهموم الاجتماعية ، والبحث الشكلي والبنيات الفنية ، والمكونات التقنية للرواية، عدم مراجعة التجربة الروائية المغربية في سياق الرواية العربية والعالمية ، فجاءت معظم الانتاجات هجينة الشكل ، تقريرية الاسلوب " (1) .

وهكذا نلاحظ أن هذه الروايات تبرز كنسخ لبعض النماذج الروائية المتجاوزة ، فهي في الغالب تفتقد الى الكثير من الدعائم الفنية والمضمونية .

---

1 - عزالدين التازي - المرجع السابق - ص : 231

وقد بدأ يبرز تأثر الرواية المغربية المباشر من الاساليب والتقنيات في تصوير الواقع المغربي ، كالطابعين الرومانسي والواقعي ، والتعبير الاسطوري ، والرمزية المجازية والضمنية ، وهي بهذا ، تحقق طفرة ، " الا أنها ظلت تساهم في تعميق التضارب ، وهذا الشتات ، كما ظلت في موقف الحيرة والتردد من الذات البورجوازية وتطلعاتها وخيباتها "(1).

استطاعت الرواية المغربية في مسيرتها القصيرة زمنيا أن تحقق تراكما ، ولو نسبيا ، تجلى في مجموع الروايات التي صدرت حتى الآن . أما مضامينها فلم تكن تتعدى هموم البورجوازية الصغيرة ، هذه الاخيرة التي عرفت ظرفا مميزا في المغرب ، عكس غيرها في البلاد العربية ، حيث فشلت في الوصول الى السلطة مما أثر على وضعها .(2)

كما حاولت الرواية ، في كل هذا ، أن تكون لسان حال البورجوازية الصغيرة في تأرجحها واستقرارها

وهكذا تطالعنا - في مرحلة الابداع - مجموعة من الروايات ، التي حاولت أن تستفيد من الدراسات النقدية على اعتبار أن الرواية في المغرب لاينتجها الا المثقفون .

---

1 - المرجع السابق - ص : 332

2 - المرجع نفسه - ص 332 - 333

وتشكل رواية (لعبة النسيان) لمحمد برادة محاولة جادة لكتابة رواية مغربية متقدمة فنيا .

ولقد كان هذا التطور حافزا لذى عدد هام من الروائيين المغاربة الذين اعترفوا بأن جنس الرواية جنس حديث ومستورد (1) ، في حين فضل آخرون - نتيجة انسياقهم مع نزعة التوفيق - القول بأنه امتداد أو استمرار للقص العربي القديم (2) ، ورأى آخرون أن الرواية هي استعادة للقص عبر طريق الغرب ، الذي قام بتطوير فن القص العربي (3)

ومثل هذا الخلاف ليس الا تعبيرا عن وجهات نظر غير متكافئة ، بعضها ينطلق من مقدمات اجتماعية ، وبعضها الاخر يدافع عن قناعات ايديولوجية ، ذات طابع قومي ، ونسي أن حضور الرواية وبعض أشكال التعبير الفني يبقى مشروطا بعوامل اجتماعية ، مؤسسة على عوامل اقتصادية وثقافية اذ ان ولادة الاجناس الادبية وانتقالها لا يأتيان صدفة .

---

1 - عبد الكبير الخطيبي - الرواية المغربية - ترجمة محمد برادة - منشورات البحث العلمي - الرباط 1971 - ص : 19

2 - عباس الجراري - آفاق التراث الشعبي - دار الامين - الرباط ص: 135

3 - ربيع مبارك - تراثنا القصصي - مجلة - آفاق - عدد: 9 - سنة : 1971 - ص : 13

وفي الحقل الثقافي بالمغرب يمكن - بلا ريب - أن نتتبع تكوّن الجنس الروائي ، كفعل ثقافي ، منذ الثلث الاول من هذا القرن ، حيث نرى عددا من المثقفين المغاربة الذين كتبوا نصوصا سردية قصصية وما كان لهم أن يقوموا بهذا لولا اطلاعهم على نصوص مشابهة قادمة من المشرق العربي ، أو مترجمة الى العربية نقلا عن الغرب ، وما أنجزوه لم يكن سوى محاولات أولى ، تنتمي الى القصة ، لا الى الرواية ، لقد كتبوا نصوصا هي في الاصل ارهاصات تغير ثقافي ينمو ويوازي تغييرات أخرى تحدث في مستويات أخرى ، لم تتضح معالمها الا مع بداية الاستقلال ، خصوصا الفترة التي ظهرت فيها نصوص تحمل اسم (رواية) وما هي الا محاولات أولى ، تلامس قواعد الجنس ، وتقترب اليه استشعارا بما تريده من المتعلمين كتابا و قراء ، كشرعددهم نسبيا ، وأصبح لهم حضور واضح ، كشريحة اجتماعية جديدة (1)

نستطيع القول اذن ، ان ظهور الرواية كجنس أدبي احتاج الى مقدمات ، والى شروط بعضها مادى وبعضها الآخر فكري ، ولعلها تتمثل - كلها - في التوجهات التالية :

---

1 - للتوسع انظر : ربيع مبارك - المرجع السابق - ص : 13 - 16
و - عبد الكبير الخطيبي - المرجع السابق - ص : 20 - 30
و - عزالدين التازي - المرجع السابق - ص : 230 - 233

1 - ظهور نوع من الثقافة صادر عن مدرسة حديثة ، وعن عملية المثاقفة .

2 - فكر تحرري ، يعنى بالواقع الاجتماعي وبقضايا الانسان ، بمختلف مراتبه ، ولا سيما الفئات الواسعة .

3 - وسائل تداول الثقافة والفكر ، ووسائل النشر والطبع والتوزيع ، مكنت كلها من توسيع موضوعات الكتابة والصحيفة .

4 - ظهور فئة من المتعلمين القادرين على توظيف العناصر ، وأيضا ، على تلقي ما يصدر عنها استهلاكا واعادة انتاج لتكون هي الآن نفسه حاملة لذلك الفكر التحرري الذي يجعلها مهتمة بالثقافة في علاقتها بالحياة الاجتماعية واليومية .

5 - استعمال العناصر السابقة بطريقة سهلة مباشرة ، مما يمكن النتاج الروائي والثقافي عامة من الانتشار .

6 - وجود نموذج سابق ، بالنسبة للرواية ، يكون قابلا لأن يعاد انتاجه تقليدا أو تحديا .

7 - لغة نثرية يمكن تداولها بكثافة ، وقابلة لأن تتسع وتتلاءم مع العناطر السابقة

كوسيلة تواصل مبسطة (1)

تلك العوامل ليست ثقافية فقط ، بل هي عناصر اجتماعية في الاساس ، أي انها وليدة حركة مجتمع يبحث عن أدوات وتصورات وقيم ، مجتمع يواكب ما يحدث فيه ، ويتابع ما يحصل خارجه (بسبب عملية المثاقفة والاستعمار والغيرة المكتسبة من الاتصال بالدول والثقوفات الاجنبية) .

ان مما لا شك فيه أن هذه العناصر لم تظهر في وقت واحد ، بل ظهرت في شكل منعزل بعضها عن بعض ، وصارت تنمو شيئا فشيئا ، وما تزال حتى الآن تتسع وتتقوى لتصبح أنظمة ، وليصبح النشر مؤسسة والتعليم الحديث نظاما ، والكتاب جزءا من عملية انتاج اقتصادي ، والفكر التحرري قيما ومواقف ، وتصبح الفئة المتعلمة ، ليست نخبة مسؤولة عن المجتمع ، بل قاعدة اجتماعية واسعة .

وهكذا يصيح في الامكان القول بأن الرواية ولدت ولادة صعبة ، نتيجة تغيير اجتماعي ، ولا يمكن أن يكون الحديث عنها في مجال ثقافي محدود بالمغرب فقط ، اذ ان " الشكل الروائي يشترك في عدد من المكونات التي تعمد اليها أجناس من التغيير الكتابي

---

1 - محمد الدغمومي : الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي مطبعة افريقيا الشرق - الدار البيضاء - 1990 - ص: 45

والشفوي مثل سرد الاحداث وفق خط الزمن عبر اللغة مثل نسبة الأفعال والوقائع الى الشخصيات، أفرادا وجماعات " (1) .

وقد تبين أن ظهور الرواية في المجال الثقافي ، ما هو الاّ مظهر دال على حصول تغيير اجتماعي ، في شكل تغير يطرأ على بنية الثقافة .

بهذا الاعتبار ، لم يكن ظهور الرواية مجرد تقليد أو استعارة فقط ، ولكنه كان عملا اقتضته حاجات ورغبات فئة من المتعلمين الجدد ، والتي تبحث عن وسائل اثبات ذاتها داخل المجتمع انطلاقا من ممارسة الثقافة ، بعد أن ظهرت عوامل مساعدة على ذلك . وبمعنى آخر ، أصبحت الرواية أداة يمكن رصد أثرها من جوانب متعددة ، تجعل منها : (2)

- شكل تعبير يتجاوز أشكال تعابير أخرى سابقة
- لغة مبسطة ، تستبدل لغة كتابة معقدة ومصطنعة
- أفكارا مرتبطة بواقع معيش في مقابل أفكار (مضمون) مطلقة أو عامة .

---

1 - باختين ميخائيل - الرواية والملحمة - ترجمة جمال شحيد - معهد الانماء العربي - بيروت 1982 - ص : 24

2 - محمد الدغمومي - المرجع السابق - ص : 47

- بطولة أفراد في مجمع يمارسون تطورا ممكنا ومختملا

وهكذا تصبح الرواية لغة في مقابل لغة قديمة (لغة النثر / لغة الصنعة الادبية) ، وواقعا يوصف ويعايش في مقابل واقع ، يراد تجاوزه (الماضي) ، وأخلاقا جديدة في مقابل أخلاق عتيقة ، وقيما فنية وجمالية في مقابل قيم تقليدية ومحافظة .

على أن حضور الرواية في السياق الثقافي المغربي، لا يعني أن التغيير قد حدث دفعة واحدة ، أو أنه أصبح قويا على صعيد جميع مكونات المجال الثقافي ، بل ان التغيير حدث بشكل بطيئ ومتدرج وما زال مستمرا ، اذ الرواية نفسها تعكس ذلك من وجهات متعددة ، ومن ثم كان طبيعيا أن تعلن الرواية عن نفسها في البدء ، في صورة سيرة ذاتية قبل أن تغدو رواية تأريخ لمرحلة سابقة وقبل أن تصبح رواية وقائع اجتماعية راهنة .

ويعني هذا - من منظور سوسيولوجي - أن المثقف أو الكاتب ما زال لم يتضح له موقعه الاجتماعي ، ولكنه يشعر به ويريد التعبير عنه ، فهو على عتبة بداية تغير ، مما يجعله متمسكا بحضوره الفردي ، يرجع فيه الى نفسه ، أو الى ذاكرته ، ليحكي ، ما دام لا يرى

ما حوله ، أو ما سيكون بدقة ووضوح على المستوى الذهني والتخييلي "(1) .

غير أن الرواية مالبثت أن ارتبطت بالواقع الاجتماعي واكتسبت منه صفات ، جعلت منها نصا لغويا أكثر تعقيدا ، وليس مجرد محاولات سردية تحكى ما كان ببساطة وسذاجة أحيانا ، ولكنها تجريب مدروس، وتخطيط ، يريد أن يماثل الواقع في غناه وتعقده ، وقلقه وغموضه ، ولتقدم لنا لغة مشحونة بأصوات متناقضة ، ومتمثلة بأساليب مختلفة . كما تقدم لنا مادة صادرة من أعماق الحياة . وبهذا يصبح الكاتب ليس مجرد شخص يريد اثبات حضوره بل شخصا يصدر عن موقف من اللغة والواقع والمجتمع(2)

ذلك مظهر لا يتحقق بدون حصول تغير ثقافي ، تكون الرواية ناتجة عنه ، وفاعلة فيه . فضلا عن أن بمجرد النظر الى الشكل الذي يطبع الرواية بالمغرب يعكس أمامنا جملة من الاستنتاجات التي تؤكدأن هذا الشكل غير مستقر ، وعدم الاستقرار هذا لا يرجع الى طول المسار الذي سلكته الروايـة ، بل انه

---

1 - انظر : ابراهيم الخطيب - التاريخ والرغبة - مجلة أقلام - ع4 - س 1977 - ص : 10

2 - الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي - ص : 52

وليد البحث الذي نتج عن عملية المثاقفة ، ووليد تغير العلاقة الثقافية بهذا الجنس وموقفه (1) .

ففي فترة الاستقلال - وهي فترة قصيرة جدا بالنسبة للفترات التي تقطعها الاجناس الادبية في نشوئها ، وتحولها - تظهر الرواية متغيرة ، بالرغم من قلة كتابها ، وهذا التغيير الذي يبدو على صعيد الشكل لا يمكن اعتباره تطورا نابعا من داخل حياة الجنس الروائي ، ونتيجة تراكماته المختلفة ، ولكنه تطور يرجع الى عنصر ثقافي إرادي ، أي انه يرجع أساسا الى مهارة الروائي ، ومدى اطلاعه وتمثله . وبتعبير آخر فهو مرتبط برغبة ثقافية ، يعبر عنها النقاد بالحداثة ، أو بصفة عامة بالتجديد (2)

في ضوء هذا نستطيع أن نزعم أن الرواية ، كشكل أدبي - تاريخ قصير ، بمعنى أنه تاريخ مرحلة محددة كمرحلة الاستقلال مثلا ، والذي هو ليس الا تاريخ اعادة انتاج الرواية ، والبحث عن تمثلها في سبيل انتاجها كنص روائي متحرر من التاريخ القديم للرواية ، ومستقل من نموذج خارجي ، على مستوى الطموح ، وهذا وحده يؤكد أن الرواية ماهي الا تعبير عن واقع ثقافي

---

1 - المرجع السابق - ص : 49

2 - المرجع نفسه - ص : 49

في حالة عدم استقرار وتغيير ، وانه كواقع بقي يتأرجح بين تاريخ سابق ونموذج أجنبي ، وبين معرفة راهنة وطموح ممكن ، لدى فئة المثقفين بصفة خاصة (1)

وهكذا مرت المحاولة الروائية بجملة محطات :

أولا : مرحلة التقليد

كتابة النص الروائي اقتداء بنموذج سابق :

أ - السيرة الذاتية (في الطفولة) (2)

ب - الرواية العاطفية (أمطار الرحمة) (3)

ج - الرواية التاريخية (وزير غرناطة) (4)

د - الرواية الفلسفية (جيل الظمأ) (5)

هـ - الرواية الاجتماعية والواقعية (مجموعة كبيرة من الروايات المغربية تنتجه هذا الاتجاه)

---

1 - الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي - - ص : 50

2 - رواية لعبد المجيد بن جلون

3 - رواية لعبد الرحمن المريني

4 - رواية لعبد الهادي بوطالب

5 - رواية لمحمد عزيز الحباني

والتقليد هنا ليس تقليد أفكار ومضامين ، ولكنه تقليد ، يظهر على مستوى :

- اللغة ، كلغة اخبارية سردية ، أو كأسلوب أدبي منفتح

- التقسيم للاحداث والوقائع كفصول، تعطي للقصة أهمية مركزية

- الحبكة التي تجعل الرواية ذات نهاية تمر عبر مراحل حسب منطق فكري مسبق ..

وعلى الرغم من تفاوت مهارة الروائيين في هذا الجانب ، وظهور روايات غير جديرة بهذه الصفة مثل (أمطار الرحمة) و (غدا تتبدل الارض) (1) ، فهي جميعا تبقى متأثرة بنموذج الرواية العربية الصادرة قبل الستينات ، وهو النموذج الذي اطلع عليه الروائيون وكان - في عمومه - واقعيا ، بالرغم من اتسامه بمسحة رومانسية .(2)

ثانيا : مرحلة التجريب

تبدأ هذه المرحلة مع منتصف الستينات ، على يد بعض الكتاب الطلائعيين الذين

---

1 - رواية لفاطمة الراوي

2 - الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي - ص : 50

الموروث والاشكال العتيقة في الفهم والممارسة، والكتابة أساسا ، ورغبوا في الوقت نفسه ، أن يكون لهم حضور ، ليس عبر تقليد نموذج ، ولكن عبر خلق كتابة رواية مختلفة ، وهؤلاء لم يستطيعوا الا أن يكتبوا بعض الروايات ، ثم ما لبث أن جاراهم في هذا الاتجاه بعض من كتب روايات واقعية تقليدية .

وعلى العموم فان التجريب الذي يطبع الرواية في هذه المرحلة ، يظهر من خلال : (1)

1 - تكسير القصة ، وجعلها متناثرة ، سواء داخل السرد ، أم عبر خط الزمن ، مثل روايات (زمن بين الولادة والحلم)(2) ، و (الجنازة) (3) ، و (وردة الوقت المغربي) (4) .

2 - المزج بين ما هو واقعي وغرائبي ، كلعبة مبررة بفعل التخييل ، مثل رواية (بدر زمانه) (5) .

---

1 - المرجع السابق - ص : 50 - 55

2 - رواية لأحمد المديني

3 - رواية للكاتب نفسه

4 - رواية للكاتب نفسه

5 - رواية لربيع مبارك

3 - لعبة تمر عبر التداعي والحلم لتنقل ذلك التخييل، مثل روايات عز الذين التازي

4 - الجهر بالموقف تجاه الواقع والسياسة (تعتمد أغلب الروايات على هذا الجهر)

5 - تعويم الشخصية داخل الرواية ، وجعلها مجرد تجليات وأصوات غير قابلة للوصف الدقيق (يوجد هذا في جميع الروايات تقريبا)

تقدم اذن ، الرواية المغربية ، على مستوى الشكل ، وما يحتويه من وقائع وأحداث وأفكار، مظهرا عميقا من مظاهر التغيير الحاصل في الثقافة التي تهيمن على الواقع ، وتقدم لنا عدة استنتاجات تكمل تلك المظاهر ، والتي تتجلى في طغيان العنصر الاجتماعي في الرواية . بمعنى انتشار الوعي بمشاكل الواقع الاجتماعي ، بكافة أبعاده .

ومما لا شك فيه ، أن هذا العنصر ، هو الذي يجعل أغلبية النصوص الروائية تنحو منحى الكتابة الواقعية التي تلتزم ، مسبقا ، بأن تكتب كرأي ، بخلاف النصوص الادبية التي سادت في مرحلة سابقة .

كما أن طغيان البطولة الفردية في الرواية

المغربية ليس فقط ، في رواية السيرة الذاتية ، بل هو في كافة النصوص المذكورة في السابق ، بما فيها النصوص التي حاولت التحرر من أسر الرواية الواقعية، وهذا ما هو الا مظهر من طغيان النزعة الفردية التي تدل على أن الفرد انفلت من وضع سابق ، ولم يتمكن بعد ، من ايجاد بديل جماعي له . فضلا عن ذلك ، فان الرواية المغربية عرفت طغيان العنصر الاجتماعي كموضوع . وما هيمنة البطولة الفردية في التعامل مع الموضوع السابق ، الا دلالة على أن ثقافة الروائي المغربي محكومة بالمجال الثقافي الخاضع للمناخ العام الذي يجتازه المجتمع ثقافيا وسياسيا (1) .

مثل هذا المناخ لايسمح للروائي أن يكتب نصوصا أدبية من نوع مخالف ، واذا ما تمكن من كتابتها ، فسيكون كاتبا معزولا ، يمثل ظاهرة استثنائية .

مع الاشارة الى أن الاستثناء هنا ، قد تكون عوامل ظهوره صادرة عن سياق ثقافي ، آخر مشبع بعملية التقليد أو التأثر . وهذا ما يفسر عدم كتابة

---

1 - أحمد ابراهيم - البطل المعاصر في الرواية المصرية - وزارة الاعلام العراقية - عام 1973 -

الروايـــة البوليسيـــة ، أو الروايـــة العلميـــة ، أو الروايـــة النفسيـــة ، ، ، فباستثنـــاء بعض النصـــوص الروائيـــة التـــي حـــاولت أن تنحـــو هـذا المنحى ، ولـــم تـوفق ، اذ تعـــذر عليها أن تكـــون روايـــات علميـــة ، أو بوليسيـــة ، بالمعنى الكـامل ، فـان القـــاعـــدة تبقى على حـالهـــا ، بمعنى سيـــادة الروايـــة الـواقعيـــة (الاجتماعيـــة ـ السيـــاسيـــة ـ التـــاريخيـــة).

ومـمـــا لا شـــك فيـــه أن غيـــاب مثل تلك الروايـــات ، أو على الأقـــل ، نـذرتهـــا الـواضحـــة ، يجـد شـرحـا يقـدمـــه الـواقـــع الاجتمـــاعي نفســـه ، ويظهـــره السيـــاق الثقـــافي أســـاســـا ، وهـــو شـــرح يـأخـذ حجتـــه مـن بعـــديـــن : (1)

1 ـ بعـد دال على نقصـان المعـارف العلميـــة الجديدة وعـــدم اتســـاع مجـــال تـداولهـا بالنسبـــة لمن هـم مؤهلون لهـــا .

2 ـ بعـد سيـــاسي ، اذ أن بعض الموضـوعـــات ، يتعـــذر على الروائي ، أن يخـوض فيهـــا ، وهـــذا ليس فقـط ، لأنـــه لا يمتلـك معـــرفـــة ، بـــل لأن الرقـــابـــة السيـــاسيـــة والـذاتيـــة تمنعـــه مـن ذلك . لهـذا لا نتصـور أن يجـرؤ روائي علـــى كتـــابـــة روايـــــة بـوليسيـــة ، اذا كـان هـو نفســـه يـدرك بـأن هـذا الموضـوع لا يستحـق الكتـابـة عنـه ، لتخلف

---

1 ـ عبد الكبير الخطيبي ـ الرواية المغربية ـ ترجمة محمد برادة ـ المعهد الجـامعي للبحث الجامعي ـ الرباط 1971 ـ ص: 7

الممارسة الامنية وأدواتها وانحرافها عن خدمة الصالح العام ، أو لارتباطها بظرفية سياسية .

الرواية المغربية و صورة المجتمع :

لقد قصدت روايات كثيرة في مرحلة الاستقلال ، التعبير عن الواقع الاجتماعي ، بكافة جوانبه ، وقد نجح عدد هام منها في نقل المواقف والآراء التي شغلت المثقفين في هذه المرحلة " وهذا ما يجعل منها روايات شاذة ، ومختلفة عن النصوص المشابهة التي كتبت باسم الرواية في سياقات ثقافية عربية أو غربية ، بل ان تاريخ الرواية هو تاريخ تحول التعبير عن المجتمع وموضوعاته واهتماماته " (1)

لقد أرادت الرواية المغربية اذن ، أن تخاطب أوسع الفئات المثقفة ، بل كانت في أكثر الاحيان خطاب مثقف لمثقف ، ، وخطاب فئة اجتماعية صاعدة تبحث عن قيم جديدة في مجتمع يتغير وتعوقه عوامل تحول دون التغيير .

وعندما أصرت الرواية على أن تكون كذلك، سواء

---

1 ـ عبد الكبير الخطيبي ـ الرواية المغربية ـ ص: 11

بتقليد نموذج سابق ، أو بمحاولة بناء نموذج تتلمسه بالتجريب ، فقد طبعها الضعف والتعثر ، وهو ضعف كان ضروريا ، ما دامت الرواية في بدايتها ، وبداية سعيها الى الحضور الثقافي ، ومادامت الرواية مثقلة - أيضا - بارأي ، أي بالافكار والاهتمامات الاجتماعية والسياسية والثقافية .

تبقى الرواية - دائما - تعبيرا عن واقع ، سواء اختارت المنحى المباشر ، أو منحى التخييل العجائبي والغرائبي ، وتظل مسكونة بدلالة ايديولوجية ، وأخرى فكرية ، تلك الدلالة التي تفهم تارة عن طريق التأويل ، وتارة أخرى ، عن طريق الفهم الظاهر (1)

ويبدو أن الرواية المغربية ، رجوعا الى درجة وعي الكتاب ومقاصدهم ، فضلت أن تكون دلالتها مباشرة لا تستدعي تأويلا ، وهي بذلك تتوافق مع اختيارات ثقافية سادت بين أوساط المثقفين الذين أصبحوا في فترة الاستقلال يبشرون بالواقعية والالتزام .

ومما لا شك فيه أن مفهوم الالتزام ، وكذا مفهوم الواقعية الذي يرتبط به ارتباطا مبدئيا ، هما

---

1 - محمد سويتي - النقد البنيوي والنص الروائي - مطبعة افريقيا الشرق - الدار البيضاء - 1991 - ص 21

وحدهما يؤشران على حدوث تغير في التفكير الادبي وانتقاله الى الموضوع الاجتماعي أو المعيشي . وعندما استجابت الرواية المغربية لتطبيق مفهوم الالتزام والواقعية ، استجابت أيضا لذلك المفهوم الادبي الذي أعطاها الشرعية ، لها قبل غيرها من الاشكال الادبية الجديدة (1) .

كما أن الرواية المغربية ، حين أرادت الوفاء لمفهومي الالتزام والواقعية ، خانتهما بضعفها ، وخانتهما - أيضا - عندما نضجت ، أي عندما قررت التعبير عن الالتزام والواقعية من خلال محاولات التجريب ، وهي في المرة الاولى أضعفت المفهومية ، وتركت ما يكفي من المبررات للمفاهيم المضادة للدفاع عن نفسها ، وفي المرة الثانية ، فتحت المجال لدخول مفاهيم جديدة تتجاوز الالتزام والواقعية (2) .

لكن بين هذا الوفاء المباشر بالالتزام وغير المباشر ، وبين ضعف الرواية وجودتها ، يكون المفهوم السائد ، المعبر عنه فكريا ونظريا ، في مركز قوة ، قياسا بغيره " ويجد من يصوغه في

---

1 - المرجع السابق - ص : 23

2 - الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي - ص : 74

الحقل الثقافي ، كمعرفة تحتاج الى احتلال مواقع معرفة أخرى ، وتكون مجموعة من التصورات التي تنتج نفسها ، وتسمح باعادة انتاجها ، بصدد الرواية ، والرواية المغربية تخصيصا ، من قبيل أن يكون ناقدا للرواية وكاتبالها " (1) .

وعلى هذا ، فالرواية " تعني أولا نقلا للواقع أو اعادة تصوير له ، كما تعني ، كذلك ، أنها في الوقتنفسه تقسير له ، يتضمن حكما عليه " (2) .

ذلك هو مظهر من مظاهر التغيير الثقافي ، ولكن الذي يعنينا هنا هو أن الرواية أصبحت - بسبب رغبتها في تجسيد مفهومي الواقعيية والالتزام - حاملة لموقف اجتماعي ، وكأنها ما كانت لتكون الا للتعبير عن هذا الموقف الاجتماعي ، الذي اتخذ صورا متعددة ، بتعدد نواحي الاهتمامات التي ينشغل بها المثقف .

وعندما نتحدث عن الموقف الاجتماعي ، فذلك يعني أن قناعات الكاتب الروائي لم تعد مجرد أفكار يقبلها في ذهنه ، ولكنها مادة قابلة للترويج ،

---

1 - أحمد المديني - فن القصة القصيرة بالمغرب - دار العودة - بيروت 1982 - ص : 332

2 - ادريس الناقوري - ميرامار - مجلة أقلام - ع6 - س 1977 - ص : 83

وهـذا الموقف الذي نتحدث عنه يكتسب داخل الرواية صيغتين : (1)

1 - تصور المجتمع

2 - التصريح بالرغبات والطموحات

وتمر هاتان الصيغتان - بالطبع - عبر أسلوب الرواية عندما تصف أو تنتقد ، من خلال الحوار الدائر بين الشخصيات ، ومن خلال تداعيات ذاكرة البطل أو احدى شخصيات الرواية ، وهما معا ، يلتقيان ليحددا مضمون الموقف الذي تكاد تشترك فيه مغظم الروايات المغربية ، وهو الرغبة في التغيير ، ذلك التغيير الذي لا يعني سوى التخلص من نقائض الواقع المزري ، ومخلفات الماضي السلبية .

وهكذا فمن يقرأ الرواية المغربية يشعر - للوهلة الاولى - بأنها رواية كتبت لتكون مرآة مغربية ، وذلك لارتباطها بالواقع المغربي ، بمحدداته البشرية والجغرافية ، وبالالتحام مع لحظة الواقع التاريخي الذي كان قبل الاستقلال ، أو بعده ، عبر العلامات المخصصة لهذا التاريخ من جهة الحدث الحاصل أو من جهة المظاهر الحضارية المصاحبة له ، لذا فان الرواية تقدم صورة المجتمع المغربي كتاريخ

---

1 - الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي - ص : 75

وكـواقـع متغيـريـن : (1)

- انهـا تقـدم لنا صورة مـا كـان (الماضي) وصـورة مـا وقع (الحاضر) ، كما تقدم صورة تداخل هذا الماضي بالحاضر ، كصراع وتفاوت .

- يمس هذا الواقع الذي تعبر عنه الرواية المغربية غالبية مكونات المجتمع ومؤسساته

وممـالامـراء فيـه ، أن المجتمع الذي نتحدث عنه - وخصوصا في فترة ما قبل الاستقلال - قد وجد نفسه ، في أكثر الاحيان ، يبحث عن وسائل للدفاع عن نفسه وهويته ، كما وجد نفسه - أيضاً - يواجه عناصر تغيير ، اقتحمت مؤسساته الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، وذلك على الخصوص خلال الحماية .

ولقد كانت لعملية الاصطدام بالاستعمار وما نتج عنها من مثاقفة شأن كبير في تقوية أسباب التغيير على جميع الاصعدة ، وفي كل مرحلة من المراحل الكبرى التي مرت بها المسيرة الثقافية المغربية منذ الحماية الى مابعد الاستقلال .

ومع أن الرواية لم تر النور في مرحلة الحماية

---

1 - المرجع السابق - ص : 76

وذلك باستثناء بعض النصوص المكتوبة باللغة الفرنسية ، فانها قد رسمت - في مرحلة الاستقلال - وبفضل عملية التأريخ والتذكر - بعض ملامح التغيير الذي ظهر كتوتر وصراع ضد الاجنبي وتقاليده ، التي نظر اليها بوصفها عناصر تهديد للهوية القومية للمجتمع المغربي ، سواء في الاحوال الشخصية ، أو في مظاهر السلوك الفردي والجماعي (1)

لقد كشفت الرواية المغربية - بصورة أخري - الوضع العام في مرحلتين : (2)

- مرحلة الحماية التي تمثلت في أنها ذاكرة لجيل عاش في هذه المرحلة ، التي نقلتها الرواية ، على أساس أنها واقع معيش ، تمتد خيوطه عبر نسيج سيرة الكاتب .

- مرحلة الاستقلال التي نقلتها الرواية ، على أساس أنها المجال المكون لحياة الكاتب ، أو - على الاصح هي - الفضاء الزمكاني لحياة الشخصيات الروائية .

واذا كان التوتر في المرحلة الأولى بارز الحدود ،

---

1 - لحمداني حميد - الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء - 985- ص.: 29

2 - المرجع نفسه - ص : 32

بين ما هو أجنبي وما هو وطني اسلامي عربي ، فان التوتر في المرحلة الثانية مطبوع بالتعقيد والتشابك ، حيث اختفى العنصر الاجنبي ، وأصبح عنصرا غير مباشر ، وحل محله عنصر آخر اجتماعي ، أتى من ظهور فئات اجتماعية تبنت ما كان يعتبر أجنبيا ،

وهكذا " أصبح التوتر داخليا يدفع المجتمع الى المزيد من التغيير وتحقيق التقدم حينا ، والانتكاس حينا آخر ، عندما يمر التوتر عبر السلطة السياسية المرتبطة بمصالح مؤقتة أو ظرفية ، لا تلبي طموح الفئات الواسعة من المجتمع ، وتعمل على خلق توازن المصالح ، ولو كانت غير متكافئة وغير منتجة " (1) .

ذلك كان بصورة عامة ، في الرواية المغربية العربية أما في رواية (المرأة والوردة) لمحمد زفزاف ، فان من الممكن اجمال صورة المجتمع فيها ، كبنية منفصمة وكتوتر بين عناصر متناقضة ، فيما يلي : (2)

1- عمرانيا (مكانيا) :

- مدينة عتيقة (المدينة) // مدينة عصرية (الاحياء الاوربية)

---

1 - خليل أحمد خليل - نحو سوسيولوجية الثقافة الشعبية - دار الحداثة - بيروت 1979 - ص : 43

2 - الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي - ص : 77

- المدينة العصرية // الاحياء الفقيرة (أحياء الصفيح)

- المدينة العصرية // البادية

2 - اقتصاديا :

- صناعات تقليدية (حرفية) // صناعات عصرية (معامل)

3 - سياسيا :

- مؤسسات مخزنية // مؤسسات عصرية

4 - قانونيا :

- قوانين شرعية - اسلامية // قوانين وضعية (غربية)

وكما هو معلوم ، فان المؤسسات التي تنتمي الى الجانب الثقافي كثيرا ما تعبر عن توتر مكوناتها من خلال بروز التناقض بين ما هو شعبي وما هو علمي، بين ما هو عامي وما هو فصيح ، أو فرنسي .

وقد يكون من نافلة القول ان هذا التعارض أمر طبيعي في كل مجتمع ذي حضارة ، وذي تاريخ ، لكن هذا التعارض الطبيعي يصبح غير طبيعي عندما لا يكون التعارض نتيجة تحول المؤسسات نفسها .

وكما سنرى في تحليلنا لرواية (المرأة والوردة) ، أنها تستقي موضوعاتها من هذا الواقع وتعبر عنه

بل تشخصه بمواقفه وآرائه ، وتنقل من خلال ذلك مظاهر التغيير التي قد تكون حالة التوتر وانفجاره ، أو تكون ناجزا ، أو تكون حلما وطموحا ، وقد يكون ذلك من خلال وصف أشياء محدودة .

وحيث ان الرواية المغربية - في عمومها - قررت أن تكون موقفا اجتماعيا ، فهي تتحمل بالضرورة أن تكون انتقادا وتعبيرا عن ضرورة حصول التغيير . وهي في هذا تجهر بالنقد ، وتكشف أن الرغبة في التغيير مطلب لدى الروائيين ، ومطلب الشخصيات التي يختارونها أقنعة تحمل رأيهم في أكثر النصوص الروائية .

" والرغبة في التغيير تقتضي حصول وعي بالعمل المحقق له (بحيث) ينبغي أن يشمل كافة عناصر المجتمع. هكذا لم نكن نجانب الصواب عندما قلنا ان الموقف يصبح موقفا لفئة اجتماعية لا ترتيد الاحتفاظ بالرأي لنفسها ، انها فئة تخاطب مجتمعا ، وعندما ترفع شعار التغيير وتربطه بالتجربة ، فهي تريد عملا جماعيا ، وان لم تتحقق شروط هذا العمل ، بسبب العوائق الكثيرة ، فهي تلح على وجود تراكم المبادرات ، تلك المبادرات هي التي تؤدي الى فعل التغيير وخلق العمل الجماعي "(1) .

---

1 - ربيع محمد محمود - مفهوم التغيير الاجتماعي في الفلسفة السياسية ، لكارل بولر - مجلة العلوم الاجتماعية - ع2 - م17 - صيف 1989 - ص : 20

ومما لا ريب فيه أن التصريح بالرغبة في التغيير يستلزم أن يكون الانتقاد شاملا لكل معوقات التغيير سواء تلك التي تكتسي صفة سياسية ، أو تلك التي تبقى سلوكا اجتماعيا ، مثل الجهل والشعوذة .

لعل من الممكن تلخيص أبعاد هذا الموقف الحامل لرغبة التغيير - والذي يقتضي تحليل بعض مضامينه وصوره - في كونه توترا بين حركتين متعارضتين ، تتمثلان في العناصر التالية :

- واقع متخلف // واقع في طريق التقدم
- البادية // المدينة
- التقليد // المعاصرة
- الجهل // العلم
- العائلة // الفرد
- القمع // الحرية

كما يمكن رصد هذه العلاقات من خلال موضوعات ترتبط بالرواية المدروسة (المرأة والوردة) ، وهذا ما سنعرض له بالتفصيل في الفصل القادم .

الفصل الثاني

مفهوم الشخصية وبنيتها في الرواية

مفهـــوم الشخصيـــة

ان للروايـــة العربيـــة وجـوهـا لا تحصى ، وأشكـالا لاتعـد، وشكـل الروايـــة ليس حقيقـــة مطلقـــة ، بـل هـو يتغيـر باستمـرار ، تبعـا لعـوامـل عـديـدة ، تتحكـم بالانسـان ومجتمعـه ، وبالتـالي بموقف أو مواقف الاديـــاء ازاء الحيـاة (1) .

كمـا أن مفهـوم الشخصيـة باعتبـارهـا قطبـا أسـاسيـا في جسـم العمـل الروائي ، عـرفت بـدورهـا هـذا التطور المـذهـل ، اذ بينمـا كـان مفهـوم الشخصيـة فـي الروايـة التـاريخيـة في مرحلتهـا الاولـى التقليديـة ، كما في المـلاحم وقصص الايـام العربيـة -(تلك الشخصيـة التي تتميـز بسمات وتقـود التـاريـخ وتـؤثـر فيـه)- صارت في الروايـــة الحـديثـة شخصيـة عـاديـة ، تنمـو وتتـرعـرع في ضـوء الشـروط الاجتمـاعيـة والفنيـة التي تحكمهـا وتستمـد فـرديتهـا وبطـولتهـا ، في اطـار عـلاقتهـا الاجتمـاعيـة بـبـاقي الشخصيـات ، نظـرا للحـريـة التي أصبحت تتمتع بهـا .

كـذلك فـانـه لكـي يـدخـل الكـاتب في مصيـر شخصيـاته

---

1 - انظـر : مجلـة الاداب - ع 12 - س 1979 ص: 39

لم يبق - كما كان عليه في الروايات التقليدية - فعلاقته بها أصبحت غير جاهزة ، اذ لم تعد الشخصية هي المكون الاول للعمل الروائي ، كما كان يرى (جورج لوكاتش) عندما أكد أن الشكل الروائي هو الشخصية ذاتها باعتباراتها وأبعادها الفنية " (1) .

ذلك فضلا عن أن عنصر الشخصية في الرواية الجديدة تمّ استبداله بالارقام والضمائر ، وضعف حتى أوشك أن ينتهي أو يختفي ، اذ أمست الشخصية مثلها مثل العناصر الشكلية الاخرى ، لا يمكن أن توجد الاّ في علاقتها بهذه العناصر المكونة لبنية النص الروائي ، واذا اللغة الفنية ، تصبح نتيجة لذلك - كما في العمل الشعري - هي البنية الاساسية للرواية المعاصرة ، قبل أيّ مكون آخر (2) .

كما تبنت الرواية العربية أيضا ، شخصيات تاريخية وخصوصا في مرحلتها الاولى ، عند (جورجي زيدان) . أما في المرحلة الثانية ، كما هو الحال في روايات نجيب محفوظ - فقد كانت دليلا على تزايد الحس القومي ، حيث يتعاظم الالحاح على اضاءة الحاضر بقبسات

---

1 - عبد المالك مرتاض - الرواية جنسا أدبيا - مجلة أقلام العراقية - ع 11 - 12 - س 1986 - ص : 131

2 - المرجع نفسه - ص : 86

من الماضي . وكانت الرواية تنبض بحس قومي .(1)

ولكن الرواية التقليدية ، وان حملت هذا الحس ، واعتمدت الشخصيات المركزية كحملة رسالات وهموم وتطلعات وآمال ، فانها ليست رواية بالمعنى المتعارف عليه حديثا وهذا يشير الى أن الشخصية في الرواية العربية التقليدية - (باستثناء بعض المحاولات التي توخت النهج الابداعي في الكتابة ، وعاينت الواقع في علائقه الاجتماعية) - لم تتمكن من بلوغ الوعي بهذا الواقع .

الاّ أنها (الشخصية) مع هذا الواقع الاجتماعي العربي الذي ظل عرضة للتغيرات في كل لحظة ، بات من الضروري أن تتجدد الشخصية في المسيرة الروائية العربية وتنتقل من طور المصالحة أو الوفاق الى طور الانسجام وعدم التطابق مع هذا الواقع المنحط .

لقد أصبحت الشخصية في الرواية العربية تحمل سمات ما ، تسمى بالشخصية الاشكالية ، ان لم نقل هي الشخصية الاشكالية نفسها ، بالرغم من أنها انسان عربي ، في هذه المرة ، وهذا معناه أنها : " اذا كانت أزمة القيم قد أدت الى ظهور الشخصية المعضلة (الاشكالية) في الرواية الغربية نتيجة

1 - للتوسع انظر مثلا : بشير بويجرة محمد - المرجع السابق - ص : 44 - 69

للتحولات الاقتصادية التي طبعت بنية المجتمع الاوروبي فان أزمة مماثلة تقترب منها في نتائجها ، وان اختلفت أسبابها ، قد اجتاحت العالم العربي ، وظهرت آثارها في الاعمال الروائية ، بوصفها انعكاسا فنيا لعلاقات الحياة اليومية (1) .

ومما لا شك فيه ، أن ظهور الشخصية بهذا الشكل في الرواية العربية المعاصرة ، بصورتها السلبية والايجابية على حد سواء ، تجسد حقيقة الصراع بين الفرد ومجتمعه . أو هي تحدد نوعية العلاقة التي هي علاقة انفصام ، وهذا ما كان مؤشرا واضحا على مدى انتقال الرواية العربية من مرحلة عكس الواقع ومحاكاته الى مرحلة نمذجة الاشياء والخوض في غمار المشاكل الحاسمة .

ويبدو أن (محمد) وهو الشخصية المحورية في رواية (المرأة والوردة) لمحمد زفزاف قد كشف عن التناقضات في المجتمع المغربي ، وبيّن أساليب الحرمان والقهر والتخلف ، التي كان يعاني منها المجتمع المغربي ، وبذلك تعد هذه الرواية (المرأة والوردة) صرخة احتجاج ورفض لكل

---

1 - اعتدال عثمان - البطل بين الاغتراب والانتماء - مجلة فصول - م2 - ع2 - س 1982 - ص : 94

أنـــواع الظلـــم والقهـــر....

وعلى العمـــوم فـان هـــذه الروايـــة ، جـاءت قـريبـــة فـي شكلهـــا ومضمـــونهـــا مـن وقـع النكبـــة . فمأســـاة جل شخصيـــاتهـنا منقـــوعـــة في تـربـــة المأســـاة حتى العنق ، سـواء كـانت شخصيـــة ثـوريـــة ، أم شخصيـــة عـدميـــة ، سواء كـان فـــلاحـا أم مثقفـا ضـائعـــا في لنـدن أو بـاريس ... . والقهـــر هـــو عصب المـأســاة ، يحيـاهـا هـــذا الجيـــل حتـــى النخـــاع ، سـواء كـان قهـرا داخليـــا ، محـوره رواسب القرون ، وأثقـــال السنيـــن المنحطـــة أو كـان قهـــرا خـارجيـا ، تمـارسه السلطـــة (1)

وقبـــل تحليلنـــا لبنيـــة الشخصيـــة في هـذه الروايـــة (المرأة والوردة) ، ارتـأينـــا أن نتعـــرف على مـاهيـــة الشخصيـــة وبنيتها في الروايـــة العربيـــة عامـة والمغربية خـاصـة .

مكـــانـــة الشخصيـــة في العمـــل الروائي

تعتبـــر الشخصيـــة العمـــود الفقـــري للعمـــل الروائي ، وهـــي تـــؤدي دورا هـــامـــا وخطيـــرا فيـــه ، وتجســـد فكـرة الروائـي،

---

1 ـ المغامرة الروائية (دراسات في الرواية العربية) منشورات اتحـاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ 1973 ـ ص : 14

وتؤثر في سير الاحداث وتوضحها ، فمن تحركاتها والعلاقات القائمة بينها ، يستطيع الروائي أن يبني عمله الفني ، ويطوره ليصل الى فكرة معينة ، يسعى الى ايضاحها . ولهذا كان لزاما عليه الاعتناء بشخصياته ورسمها وفقا لمقتضيات العمل الفني ، ليقربها من القارئ

وهذا يقتضي التصوير الدقيق لكل شخصية ، مع توضيح أبعادها وجزئياتها ، سواء " أكانت علاقات التكوين الخارجي والتصرفات والاحاديث الصادرة عنها ، أم تلك المكونات النفسية الداخلية التي تتحكم في السلوك الفردي " (1)..

ولما كان العمل الادبي يعتمد الى درجة كبيرة على الشخصية التي ينمو بنموها ، ويتحرك بتحركها ، فان على الروائي أن يحذر وجود هوّة بين الشخصيات والحبكة، فكلتاهما يلتحم في نسيج واحد ، ويشكل في النهاية العمل الروائي ، حيث نجد السمات المعينة للشخصية تحدد الحدث ، الذي يغير بدوره الشخصيات ويطورها. وبهذا تصل الرواية الى عالم الفن الروائي(2).

---

1 - نصر الدين محمد - الشخصية في العمل الروائي - مجلة فيصل - ع37 - س1980 - ص: 20

2 - المرجع نفسه - ص : 20 - 21

ذلك العالم الذي يقوم أول ما يقوم على وجود الشخصية، اذ هو الذي " تتمحور حوله كل الوظائف والهواجس والعواطف والميول " (1) .

ولهذا فان الروائيين - عامة - بدأوا التركيز على الفرد الذي يمثل بشكل أو بآخر محور العمل، وقد بدأ هذا الاهتمام في حقيقة الامر منذ نشأة المدارس الفنية التي تهتم بعناصر الطبيعة من جهة ، وبالانسان من جهة أخرى ، باعتباره أساس المجتمع ، فكان لابد أن تنعكس تلك المفاهيم على الادب الروائي " (2) .

فالشخصية هي اذن ، مصدر الخير والشر ، في أي عمل فني ، حيث ان الكاتب يقيم عليها فعله " وهي في الوقت نفسه تتعرض لافراز هذا الشر أو ذاك الخير ، وهي بهذا المفهوم وظيفة أو موضوع ، ثم انها هي التي تسرد لغيرها ، أو يقع عليها سرد غيرها ، وهي أداة وصف ، أي أداة للسرد والعرض ، كذلك فان الشخصية أداة فنية يبدعها المؤلف لوظيفة ، هو مشرئب الى رسمها " (3)

---

1 - عبد الملك مرتاض - الشخصية في القصة الجزائرية المعاصرة - مجلة الكاتب العربي - ع 7 - س 1984 - ص : 25

2 - نصر الدين محمد - المرجع السابق - ص : 20

3 - عبد الملك مرتاض - المرجع السابق - ص : 25

ولا يمكننا فهم الشخصية فهما عميقا بأنماطها وأبعادها وسلوكاتها ، الاّ اذا حاولنا التعمق في معناها ، ووقفنا على حقيقتها في اللغة ، وحاولنا التعرف على مختلف الآراء لدى علماء النفس ، وأهم التعريفات لدى علماء الاجتماع ، نظرا لما للشخصية من أهمية عند الفريقين ، لكونها عنصرا هاما في كل المجالات الانسانية . وسنحاول ايضاح الشخصية الروائية ، التي يقربها الروائي ، بعد أن يضفي عليها من ذاته ، أو ذوات الآخرين ، فتأتي تعبيرا عن موقفه من الحياة .

ولفهم معنى الشخصية ، لابد من البحث عن أصل الكلمة في المعاجم . ففي لسان العرب (لابن منظور) لم ترد كلمة الشخصية ، ولومرة واحدة ، مما يدفعنا الى القول بحداثتها ، ويدل هذا على وجودها في المعاجم الحديثة ، فقدورد تعريف لها في المعجم الوسيط على أنها " الصفات التي تميز الشخص من غيره ، مما يقال معه ، فلان لا شخصية له ، أي ليس له ما يميزه من الصفات الخاصة " (1) ، أو هي من " شخص تشخيصا الشيء ، عينه وميزه عما سواه " (2) .

---

1 - المعجم الوسيط - ابراهيم مصطفى - أحمد حسن الزيات - حاق عبد القادر - محمد علي النجار - مطبعة مصر - القاهرة 1960 ج 1 - ص : 473

2 - المرجع نفسه - ص : 473

وهكـذا ، فالمحـدثون يـريـد ون بهـا مـايميـز الشيء مـن غيـره ، أمـا القـدمـاء فلـم يوردوا الكلمـة اطـلاقـا في سيـاق حـديثهـم ، وبنـاء على أن الشخصيـة تعنـي الفـرد بكـل مـا يميـزه مـن غيـره ، من صفـات فيزيولوجية ووجـدانيـة وعقليـة ، فانها تبقى مجهولة عند القدماء.

أمـا في معجـم المصطلحـات الادبيـة المعـاصرة ، فقـد ورد فيـه قـول صـاحبـه : ان الشخصيـة تستعمـل في " الادب الروائي ، الاّ أن المصطلـح أخـذ يختفي ، ليحـل محلـه مصطلـح (الفاعـل) أو (الممثـل) لـدقتهمـا السيميـائيـة (1)

وهكـذا فالشخصيـة موضـوع ، يكـاد ينفـذ الى كـل ميـدان مـن ميـاديـن العلـوم الانسـانية ، وتمثـل المحـور الـذي تـدور حـولـه دراستهـا وبحـوثهـا ، بهـدف الكشف عـن فـاعليـة الفـرد، وشـروط تحقيـق هـذه الفـاعليـة .

اي ممـا لاشـك فيـه أن كلمـة (شخصيـة) محدثـة ، اذ يرتبـط وجـودهـا بعلـم النفـس ، الـذي يعتبـر الشخصيـة من أعقـد مفـاهيـم علـم النفس، اذ هي تشمـل كـل

---

1 - سعيد علوش - معجم المصطلحات الادبية المعاصرة - عرض وتقديم وترجمة - سعيد علوش - منشورات المكتبة الجامعية بالدار البيضاء - 1984 - ص : 73

الصفات الجسمية والعقلية والخلقية والوجدانية في تفاعلها بعضها مع بعض ، وفي تكاملها في شخص معين يتفاعل مع بيئة اجتماعية معينة .

ولهذا تعددت الآراء التي تعالج مفهوم الشخصية وطبيعتها أو خصائصها ، فمنها ما يتناول الشخصية كما تبدو في مرآة الغير ، فتصف الاثر التي تتركه مجموعة الصفات الجسمية والوجدانية في الآخرين ، ومنها ما يتناولها كما تبدو في مرآة الذات، وتدور حول شعور الشخص بذاتيته ووحدته (1)

هذا تصور ذهني مطلق على أي انسان ، في حين ان مصطلح الشخصية يفترض انسانا معينا ، يتصف بالموضوعية ويشترك مع غيره في بعض الصفات، ويختلف عن غيره في صفات أخرى (2) .

ويأخذ مصطلح الشخصية في اللغات الاخرى معنى الوجه المستعار، أو القناع الذي يضعه الممثل، في المسرح اليوناني على وجهه . وكان الغرض من استعماله هو تشخيص الخلق الذي يقوم بدور من أدوار المسرحية

---

1 - عثمان لبيب فراج - الشخصية والصحة النفسية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - 1979 ص : 32

2 - المرجع نفسه - ص : 32

فهو اذن ، بمثابة عنوان لطباع الشخص ومزاجه الخلقي. ويشمل هذا المعنى الممثل والدور الذي يقوم به أو الصفة الظاهرة (الوجه المستعار) والصفة الطبيعية (الممثل)(1).

كما أن الشخصية - من وجهة علم النفس - هي الانماط السلوكية المختلفة التي يستجيب لها الفرد للمثيرات التي تقع عليه، سواء كانت هذه الانماط تعبيرات في ملامح الوجه ، أو كانت اشارات جسمية ، أو تعبيرات كلامية ، أو أساليب انفعالية ، أو طرق التفكير ، أو غيرها من الاستجابات (2)

وهكذا أصبح الروائي يغور في أعماق الشخصية ويحلل سلوكها، ويقدمها لنا من جميع النواحي النفسية ، حيث يصور عالمها الداخلي والخارجي ، وعلاقاتها الاجتماعية ، محاولا بذلك ربط الاحداث بهذه العوامل ، مع الاشارة الى أن هناك تباينا بين الروائيين في مدى اهتمامهم بهذه النواحي التي تظهر في العمل الفني ، من خلال الحوار الداخلي ، أو تيار الوعي . وهذا ما نجده على الخصوص عند (نجيب محفوظ) في رواياته التأملية أو الفلسفية ، التي لا يهتم فيها بتسجيل التجربة

---

1 - المرجع السابق - ص : 32

2 - المرجع نفسه - ص 32 - 33

بقدر ما يهتم بسبر أغوار الشخصية من الداخل(1) وذلك ليقيم علاقة بين حالة الشخصيات النفسية وسلوكها أو علاقتها بمن حولها . فهي تمثل نماذج مختلفة من فئات المجتمع، وفقا لما يرتئيه الكاتب مناسبا لمقتضيات الحدث والفكرة . وهذا يحتاج الى مهارة الروائي ، ليصل الى اثارة القارئ واقناعه، وهو بالضرورة يعود الى نمط الشخصية الروائية ، الذي هو صورة لأنماط الناس في الواقع ، حيث نجد الشخص السلبي والايجابي ، البسيط والمعقد ، الخبيث والعفيف (2).

وبالرغم من كثرة التصانيف الحديثة لانماط الشخصية الا أن تصنيف (يونج)لها بالنمط المنطوي والنمط المنبسط ، هو أشهرها ، وأشدها تأثيرا على الفكر المعاصر. (3)

وهو يقصد بالنمط المنطوي " الشخص الذي يفضل العزلة وعدم الاختلاط ، وتحاشي الصلات الاجتماعية، وتؤدي العوامل الذاتية أهم دور في توجيه سلوكه، وهو دائم التفكير في نفسه ، يخضع سلوكه لمبادئ

---

1 - محمد زغلول - دراسات في القصة العربية الحديثة - منشأة المعارف - الاسكندرية - ص : 329

2 - عثمان لبيب فراج - المرجع السابق - ص : 21

3 - المرجع نفسه - ص : 21 - 22

مطلقة وقوانين صارمة ، دون مراعاة للظروف وبلا مرونة ، وتعوزه المقدرة على التكيف السريع أو التوافق الاجتماعي ، كثيرالشك في نيات الناس ودوافعهم ، يحقق التوافق عن طريق النكوص والخيال والوهم ، مسرف في ملاحظاته لصمته ، وعلاج أمراضه ومظهره الشخصي " (1)

ويقابل النمط المنطوي ، النمط المنبسط ، الذي يقف في خط معاكس ، من حيث التصرفات والعلاقات الاجتماعية " ويتميز بالنشاط والميل الى مشاركة الناس في نشاطهم وأعمالهم ولا يهتم بصحته أو مرضه ، قادر على الملاءمة بسرعة بينه وبين المواقف الجديدة الطارئة ، ويختلف عن النمط الاول بأنه يعتمد على العوامل الخارجية في توجيه سلوكه ، ويقبل على الدنيا في حيوية و مرا حة ، يلائم بسرعة بينه وبين المواقف الطارئة ، ويكون صداقات مسرعة ولا يحفل بالنقد ، ولا يكتم ما يجول في نفسه من انفعال"(2)

مع العلم ان الروائي يحتاج - في كتاباته - الى النمطين معا ، لتصوير الواقع الاجتماعي ، اذ من غير الممكن أن تكون شخصيات الرواية كلها

---

1 - المرجع السابق - ص : 21

2 - المرجع نفسه - ص : 21

تنتمي الى النمط الاول ، ولا أن تكون من النمط الثاني ، " والاّ سيحدث عدم توازن في أحداث الرواية التي تنبني على وجود علاقة بين شخصيات مختلفة في سلوكها ومواقفها ومبادئها ، يعبر الكاتب من خلالها عن شرائح مختلفة من المجتمع بكافة تناقضاته ، فالفنان قادر على تصنيف المجتمع وفرزه والتعامل معه ، كما أن مراتب الشخصيات وسماتها تتضح من خلال مواقفها في الرواية ، فهي مواقف تتنوع وتتباين حسب ادراك الفنان للواقع " (1) .

ويبقى دور الروائي متمثلا في كيفية التعامل مع هذه الشخصيات ، وفقا لما يقتضيه الحدث ، حيث تأخذ كل شخصية موضعها الملائم الذي يجعلها قادرة على تصوير فئة من فئات المجتمع.

كما أن الشخصية الروائية وجه من وجوه الافراد في المجتمع ، وهي جزء لا يتجزأ منه ، تنتمي اليه بكل مواصفاتها ودقائقها ، مهما بلغت درجة الخيال عند الروائي ، لأن ما هو مختزن في هذا الخيال صورة مستمدة من واقع الحيا ة .

---

1 - محسن جاسم الموسوي - حول مفهوم الشخصية والبطولة في الرواية العربية المعاصرة - مجلة الموقف الادبي - ع 104 - 105 - كانون الاول والثاني - 79 - 1980 - ص : 72

ونظرا لما للشخصية من أهمية في المجتمع ، فقد عني علماء الاجتماع بها عناية كبرى ، فالمجتمع لا يمكن أن يقوم الاّ على العلاقات المتبادلة بين أفراده ولا يمكن عزل الفرد عن مجتمعه ، بعاداته وتقاليده وثقافته ، ولا يمكن أن ينمو بعيدا عنه . ولهذا فقد كان اهتمام علم الاجتماع بالشخصية اهتماما قائما على أساس العلاقات الخارجية ، التي تعمل على نمو الشخصية ، ولهذا أيضا ، كان اهتمامهم منصبا على العوالم الاجتماعية والثقافية ، لأن الفرد في نظرهم لا يمكن أن يكتسب شخصيته الاّ من مشاركته الجماعية في حياتهم ، حيث يتعلم عن طريق علاقاته الاجتماعية وتفاعله مع غيره (1) .

ويعني هذا أن الانسان يصبح شخصا نتيجة المؤثرات الاجتماعية التي تؤثر في كيانه التشريحي والفيسيو - لوجي والعصبي ، ولا بد لكي يصبح شخصا أن يكتسب اللغة (2) ، باعتبارها وسيلة الاتصال الاولى بينه وبين غيره من أفراد المجتمع .

على أن أهمية موضوع الشخصية في علم الاجتماع

---

1 - الشخصية والصحة النفسية - ص : 4

2 - المرجع نفسه - ص : 4 - 5

يأتي من زاوية أن الافراد هم المكونات الاساسية في كل الانساق الاجتماعية والثقافية ، واذا كان الامر كذلك ، فان شخصياتهم تؤثر من غير جدال في اطار الانماط الثقافية والاجتماعية (1)

ويكمن الجانب الهام للشخصية في أنها تنمو في المواقف الاجتماعية ، وتعبر عن نفسها من خلال التفاعل مع الآخرين ،

ولعل في ضوء هذه المفاهيم الخاصة بالشخصية عملت الواقعية الحديثة على ايجاد علاقة بين الادب والمجتمع ، باعتبار الادب صورة لما في المجتمع ، وهي تريد بهذا أن تربط الادب بالمجتمع ربطا حيا ، ومتطورا، وأن تجعل منه صورة صادقة ، ومرآة مبدعة لحياة المجتمع في قلقه و أمله وتطلعه ، فالادب انتاج اجتماعي ، وهو على حد تعبير النقاد الواقعيين نقد للحياة (2)

وانطلاقا من هذا ، فان الرواية - بما تشمله من أحداث وشخصيات - نوع من الادب ، يحكي ناحية اجتماعية

---

1 - المرجع السابق - ص : 6

2 - عصام محمد الشنطي - الجمالية والوقعية في نقدنا الحديث - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 1979 - ط 1 - ص : 78

نتعرف بواسطتها على قضايا انسانية مختلفة ، مستمدة نسيجها من الواقع المعيش ، وتعبر عنه بأفكار يسوقها الروائي من خلال شخصيات ، تنتمي الى المجتمع وهو بهذا يقدم لنا أنماطا مختلفة ، وجوا اجتماعيا عاما .

فالاشخاص هم مدار هذه المعاني الادبية ، ومحور وجودها ، ولهذه المعاني أو الافكار المكانة الاولى في العمل الادبي ـ(سواء أكان قصة أم رواية) ـ منذ انصرف الى التعبير عن الانسان وقضاياه ، اذ لا يسوق الروائي أفكاره منفصلة عن محيطها الحيوي ، بل ممثلة في الاشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما ، والاّ كانت مجرد دعاية ، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي ، وقيمتها الفنية معا . فلا مناص من أن تحيا الافكار في الاشخاص ، أو تحيا الاشخاص وسط مجموعة من القيم الانسانية يظهر فيها الوعي الفردي ، متفاعلا مع الوعي العام في مظهر من مظاهر التفاعل على حسب مايهدف اليه الاديب في نظرته الى القيم ، وفي أغراضه الانسانية (1)

كما أن الشخصية الروائية تختلف من رواية الى أخرى

---

1 ـ محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ مكتبة الانجلو مصرية ط 5 ـ القاهرة 1971 ـ ص : 568

ومن كاتب الى آخر ، بناء على موقف الكاتب ، أو اتجاهه الفكري ، كما أن للمجتمع دورا في هذا التباين ، اذ أن الظروف الاجتماعية و الثقافية تؤدي دورا في توجيه الشخصيات ، فبينما نجد رواية تعبر عن المجتمع والعلاقات الاجتماعية ، وتصور استجابات الانسان الفرد كلما دخل في علاقات مع الغير ، نجد في المقابل رواية تحاول استكشاف الحياة الباطنية للانسان ، وتعتبر النفس الانسانية كونا يتجول فيه الكاتب ليتمكن من اظهار الدوافع السلوكية الداخلية وتأثيرها على حياة الانسان وتصرفاته ، وهذا يعود الى المدرسة السلوكية النفسية التي تربط سلوك الفرد بالناحية النفسية ، وتهتم بدراسة الابعاد الداخلية للشخصية . فالاديب الواقعي يصور اذن ، البيئة تصويرا دقيقا ، ويلتقط أدق جزئياته ويرتب هذه الجزئيات ترتيبا عضويا ، لتصبح شخصيته حية في الرواية (1)

واذا اتجه الروائي الى الباطن فانما يصور العالم الداخلي ، الذي بوسعه أن يقاوم ما يقع في الخارج من الكوارث والتغيير والضياع والحرمان (2)

---

1 - حامد النساج - بانوراما الرواية الحديثة - المركز العربي للثقافة والعلوم - القاهرة 1982 - ص : 66

2 - كتابة الرواية - ترجمة محمد الهاشمي - مجلة الموقف الادبي- عدد تشرين الثاني - دمشق 1980 - ص : 37

وفي الحالتين فان الشخصية الروائية هي المحرك الاول للأحداث ، حيث ان الروائي يعمد الى كشف شخصياته واظهار تقلباتها النفسية ، وصراعاتها الداخلية ، وعلاقاتها ببعضها البعض ، والنتائج المبنية على هذه العلاقة .

والشخصية الروائية هي وجه للشخصية في الواقع بل هي معادل لها ، مع اختلاف في الناحية الفنية التي توضح معالم الشخصية للقارئ ، لأن تصرفاتها مرتبطة بدوافع ، والروائي الماهر يصور العالم الداخلي لشخصياته ، الى جانب عالمها الخارجي ، لأن الصراع الداخلي ما هو الاّ ردفعل لما يحدث في العالم الخارجي، ولا يمكن الفصل بين العالمين ، " ولابد للروائي من تسجيل ذلك التفاعل المحتدم بين عالمي الشخصية الداخلي و الخارجي . اذ تبدو شخصية البطل في العمل الروائي ظاهرة الابعاد من خلال مواصلة الطرحوالتفاعل المطرد في جوانب الشخصية ، اذ ان الشخصية لاتتكون ولا تنمو الاّ نتيجة لتفاعل التكوين البيولوجي للفرد مع العوامل البيئية ، ، خاصة الاجتماعية والثقافية التي تغشاه من كل جانب ، طول حياته ، حتى قيل

ان الشخصيـــة هي طبيعـــة الفـــرد بعـــد أن يحـور التفاعـل الاجتمـــاعي (1) .

وعلى الروائي أن يـأخـذ بزمـــام الامـــور ، فـلا يتـرك الحرية المطلقـــة لشخصيـــاتـــه ، فتخرج عـن الـواقـع ، ولا يتحكـم فيهـا كـل التحكـــم ، فيربـط مصيرهـا بمصيـره ، ويصف كـل تحـركـاتهـا ، ويبـرر انفعـالاتهـا . وعندمـا يقـع في مـأز ق يجعلـــه يصف نفســـه مـن خـــلال شخصيـــاتـــه ، أو يفـــرض نفســـه عليهـا . وبذلك يبتعـد في عملـــه عـــن المـــو ضوعية ، " فالكـاتب يخلق أشخـاصـا ... مستعينـــا بالتجـارب التـــي عـانـاهـا هـو ، أو لحظهـا ، وهـــو يعـــرف كـل شيٍ عنهـــم ، ولكنـــه لا يفضي بكـل شيٍ ، فـلا يصـح أن يـذكـر تفصيـلات الحيـــاة اليـوميـــة ، اذا كـانت لا تمت بصلـــة الى فكـرة القصـة ، ولا تـدل على الحـالـة النفسيـــة لأشخـاصـــه ، أو على العـادات والتقـاليـد ذات السلطـان في المجتمـــع ، وانمـا يعني الكـاتب بما يخـص الصـلات الانســانية لا المادية المجـــردة في مـاديتهـا لـذاتهـا" (2)

ان الروائي كالرســـام يحتـاج الى مهـارة فـــي

---

1 - الشخصية في العمل الروائي - مجلة فيصل - ع 37 - ص : 23

2 - محمد غنيمي هلال - المرجع السابق - ص : 565

التأمل مع الالوان والخطوط ليشبع فضول القارئ ، واقناعه بنقل الشخصية الروائية مع الواقع الحقيقي الى الواقع الروائي الذي يتلاءم معها ، هذه الشخصية تعتمد ، في وجودها على عبقرية الاديب المبدع ، وخياله البناء ، حتى يستطيع أن ينقل تلك الشخصية من عوالم محدودة بحدود الزمان والمكان ، الى عوالم رحبة ، لتصبح نماذج بشرية عامة . ولعل قوة الابداع الفني للشخصية لا تكون فقط في حياتها المتدفقة النابضة داخل العمل الفني ، بل حتى في حياتها خارج العمل الفني (1) .

كما أن الشخصية في الرواية ، تختلف باختلاف الناس في المجتمع ، فالروائي يعطيها أدوارا تتلاءم وواقعها الاجتماعي ، حتى يحدث التوافق بين الواقع الحقيقي والواقع الروائي ، ويختار من بينها شخصية يشعر أنها قادرة على حمل أفكاره ، وايصال رسالته ، فيضع فيها ثقته ، ويأخذ بتوضيح جوانبها ويخلق حولها جوا من الاحداث والشخصيات ، تساعدها على التحرك والنمو ، لأن نمو هذه الشخصيات داخل

---

1 - الشخصية في العمل الروائي - ص : 22

الرواية يعتمد على مدى أهميتها لدى الروائي ، اذ بواسطتها سينقلنا الى عالم شبيه بعالمنا الحقيقي.

على أن اختلاف الشخصيات في العمل الروائي ، يؤدي بالضرورة الى اختلاف وظائفها ، وذلك تبعا لمقتضيات الحدث ، مما يخلق معه شخصيات رئيسية ، وأخرى ثانوية ، أو ما يسمى بالشخصيات النامية والشخصيات البسيطة ، وهذا بناء على علاقة الشخصية بالحدث ومدى فعاليتها في ايضاحه وتطويره(1)

فالشخصية ذات المستوى الواحد هي الشخصية البسيطة في صراعها ، غير المعقدة ، وتمثل صفة أو عاطفة واحدة ، وتظل ساندة لها ، من مبدأ القصة الى نهايتها ، ويعوزها عنصر المفاجأة ، اذ من السهل معرفة نواحيها ازاء الاحداث أو الشخصيات الاخرى " (2) .

وكما هو معروف فان هذا النمط من الشخصيات هو أيسر تصويرا ، وأضعف فنا ، لأن تفاعلها مع الاحداث قائم على أساس بسيط ، لا يكشف كثيرا عن الاعماق النفسية لها .

---

1 - المرجع السابق - ص : 22 - 23

2 - محمد غنيمي هلال - المرجع السابق - ص : 566

كما أن هذا النمط من الشخصيات كثيرا ما يغيب في الرواية بسرعة ، حيث ينتهي دورها بانتهاء المهمة التي أوجدها الروائي لتأديتها ، أو بانتهاء الدور ، وقد لانعرف عنها بعد ذلك شيئا ، الاّ أن دورها في الرواية مهم بالنسبة للقارئ والروائي معا (1)

أما بالنسبة للروائي ، فبإمكانه رسم هذه الشخصية بكل خصائصها ، بسهولة لتوضيح فكرته ، وتيسير عمله ، دونما حاجة الى شرح وتحليل . و أما القارئ فهويستأنس بها ، لأنه يجد فيها بعض أصدقائه ومعارفه الذين يقابلهم كل يوم ، كما أنه من السهل عليه أن يتذكرها ويفهم طبيعة عملها في الرواية (2) .

وهكذا فان الشخصية البسيطة تكون بمثابة المحطات التي يقف عندها الروائي ، بين الفينة والأخرى ، لكي يقدر مدى ما قطعه من مراحل الطريق (3) .

---

1 - المرجع السابق - ص : 566 - 567

2 - المرجع نفسه - ص : 568

3 - محمد السمرة - في النقد الادبي - الدار المتحدة للكتاب - ط1 - عام 1974 ص 21

وفي المقابل تقف الشخصيات النامية المتطورة وهي الشخصيات الرئيسة في الرواية "لتنكشف لنا تدريجيا خلال القصة ، وتتطور بتطور حوادثها، ويكون تطورها - عادة - نتيجة لتفاعلها المستمر مع الحوادث، وقد يكون هذا التفاعل ظاهرا أو خفيا ، وقد ينتهي بالغلبة أو بالاخفاق" (1) .

ان هذا النوع من الشخصيات يتطور وينمو بصراعه مع الاحداث أو المجتمع ، بالاضافة الى أن الروائي يقدمها في شكل مقنع فنيا ، فلا يعطيها من الصفات الا ما يبرر موقفها ، وهي العامل لأفكاره ومبادئه (2)

ومن المعروف أن في كل رواية شخصية أو شخصيات رئيسة، الى جانب الشخصيات الثانوية (3)ولا بد أن تربط بينها علاقة بشكل أوبآخر ، لدعم الفكرة الجوهرية وتوضيح الموقف العام ، مما يجعل وجود كتل الشخصيات على اختلاف مستوياتها أساس كل رواية ، علما بأن الروائي يقوم بخلق شخصياته ويلفق لها أقدارها ثم يجعلها تسعى وتناضل ، تسعد وتشقى ، ثم تموت . وهذا كله ، يعود الى أن الروائي يستمدها من الاشخاص الذين يقابلهم في حياته ، أو من وصف لهم في مجالس يحضرها ، أو من قراءاته عنهم في

---

1 - محمد يوسف نجم - فن القصة - دار الثقافة -بيروت ص: 103

2 - المرجع نفسه - ص : 103 - 104

3 - للتوسع انظر : محمد بويجرة - المرجع السابق - ص: 128 - 158

الصحف والكتب ، مما دفع (نجيب محفوظ) الى أن يقول " لا نتصور أديبا يعبر عن الناس كما هم في الواقع لأن الاديب يكتب من أجل اشباع حاجات في صدره (1)

ومهما يكن واقعية الاديب في عمله الفني ، فان الواقع الفني يبقى غير الواقع الحقيقي ، والاّ أصبح الروائي مصورا آليا ، وهذا يتعارض مع الفن .

ويختلف الروائيون في رسم شخصياتهم ، باختلاف طرائقهم الفنية ومناهجهم في الكتابة ، وقد يعسر حصر هذه الطرق أو المناهج المتبعة ، ولكننا - مع ذلك - نستطيع أن نشير الى ذلك بصورة عابرة ، فنرى أن منهم ، من يأخذ برسم شخصياته داخليا وخارجيا ، فيعبر عن عواطفها وأفكارها ، ويعلل تصرفاتها ، فيوظف نفسه مسؤولا عنها في كل حركة تتحركها . وقد يترك الحرية المطلقة لشخصياته ، فتعبر عن نفسها من خلال تصرفاتها ، أو تعبر عنها الشخصيات الاخرى من خلال علاقاتها بهم . كما قد يضطر الروائي الى الابتعاد نهائيا ، ليتسع المجال أمام الشخصية ، وهذا ما نجده في السير الذاتية ، والروايات التي يطغى عليها تيار الوعي ، حيث تكشف الشخصية عن نفسها بواسطة تداعي الافكار أو الكشف المباشر ، والمراجعة

---

1 - نجيب محفوظ - أتحدث إليكم - دار العودة - بيروت - ط1 - عام 1972 - ص : 113

الداخليـــة ، وهـــذا كلـــه يعتمـــد على الفكـرة التي تفـــرض الطريقةالمستعملـــة في رســـم الشخصيـــات (1) .

كمـا أن الروائي قـد ينفعـــل - في بعض الاحيـــان - فيندفـع في تصـويـــره للشخصيـــات ، ممـــا يجعلتـــه لا يكتفي بالحقـــائق الـواقعيـــة ، بـل يضفي عليهـا مـــن خيـــالـــه مـا يسمـو بهـا الى عـــالـــم الخـــوارق ، فتحمـــل أهـــم خصـــائص الشخصيا ت البطلـــــة المختـــزنـــة في ذاكـــرة الروائي ، بالاضـــافـــة الى خيـــالـــه ، فتثمـــر عـــن شخصيـــة بعيـــدة عـــن الواقـع وأقـــرب الى الاسطـــورة ، فيهـــا سمـــات البشـــر ، لكنهـــا أقرب الى الخـــرافـــة منهـــا الى الـواقـــع . على أن معظـم الشخصيات الروائيـــة تبقى عـاديـــة ، تعبـــر عـــن المجتمـــع بكـــل مـا فيه مـن آمـــال وآلام وتنـــاقضـــات ، ومـــا يعـــانيـــه مـــن أزمـــات وصـــراعـــات ، ومـا يحـل فيـــه مـــن تقلبـــات . وهـذا يتطلـــب شخصيـــات ايجـابيـــة ، حيث ان واقعيـــة الشخصيـــــرة وامتـــداد جـذورهـــا في المجتمـــع يقتضـي مـن الروائي رسمها سلبـــا وايجـابـا ،(2)

وبنـــاء على مـا تقـــدم ، فان الشخصيـــة الروائيـة تبـوأدي دورا كبيـــرا في العمـل الروائي ، مـــن حيث انهـا جـزء مـــن الـواقـــع الحقيقي ، تجسدت فيهـا أفكـار الروائي و رؤيتـــــه الاجتمـــاعيـــة . هـــذه الرؤيـــة تنعكـــس على الشخصيـات ،

---

1 - النقد البنيوي والنص الروائي (نماذج تحليلية من النقد العربي - ص : 74

2 - محمدمصايف - النقد الادبي في المغرب العربي - م.و.ن.ت الجزائر 1984 - ص : 372

وتظهر في رسمها وعلاقاتها بالمجتمع ، وتحدد - بالتالي - مواقفها وأفكارها التي ما هي الاّ مواقف وأفكار الروائي نفسه .

الفصل الثالث

بنية الشخصية في رواية

المرأة و الوردة

في رواية (المرأة و الوردة) تطرح مسألة اشكالية الوضع الاجتماعي بشقيها : الوضع الاجتماعي الداخلي في المغرب ، والعلاقة مع المجتمعات الغربية ، وذلك بشكل أكثر مأساوية .

وينبغي - منذ البداية - أن لا ننسى أن رواية (المرأة و الوردة) مرتبطة بمرحلة متأخرة من تاريخ المجتمع المغربي ، وهذه الفترة ، تعتبر من أكثر الفترات التاريخية في المغرب المستقل، ترسيخا لنظام اقتصادي وسياسي ، يحدد طبيعة الوضع الاجتماعي الداخلي ، كما يحدد - في الوقت نفسه - طبيعة العلاقة التي أصبحت تربط المغرب بالعالم الغربي .

واذا كانت فترة الخمسينات فترة مخاض وتقلبات، أدت الى فشل كل القوى الاجتماعية الايجابية التي كانت مهيأة لخلق وضع اجتماعي جديد ، بعيد عن التبعية للخارج ، ومحقق لبعض الاصلاحات الاجتماعية الايجابية ، فان فترة الستينات قد كشفت عن التصالح بين القوى الليبرالية المرتبطة بالمغرب ، ثم النجاح التقليدي للحركة الوطنية ، كما كشفت عن العلاقة العضوية بين هذه القوى جميعا والنظام الاجتماعي الرأسمالي المغربي (1)

---

1 - فتح الله ولعلو - تطور التشكيلة الاجتماعية - مجلة المشروع - دار النشر المغربية - د . ت - ص : 69

كانت تعيش عليها البورجوازية الصغيرة على الخصوص باعتبار أن أفرادها كان في امكان بعضهم أن يلتحقوا بالمدارس الرسمية ، وأن يتلقوا تعليما، يحمل طابعا تقليديا متخلفا ، ومن ناحية ثانية يحمل طابعا غربيا ، مفرغا من أكثر الجوانب الايجابية في ثقافة الغرب . ومع ذلك فقد ظهر من بين أفراد هذه الفئة من استطاع ادراك وضعيته المأساوية ، خصوصا وأن الوضعية الفئوية للتعليم كانت تدفع بهم في الغالب الى البطالة (1) .

والنموذج الذي تعالجه رواية (المرأة والوردة) ينطلق بالذات من وضعية المثقف البورجوازي الصغير الذي يعاني التشرد في واقع يسحقه ويسد المنافذ في وجهه ، كما تؤكد - في الوقت نفسه - طبيعة اختلال القيم التي يؤمن بها ، وارتماءه في أحضان التجربة العفوية ، وفي أحضان المغامرة ، وخاصة ، في بلاد الغرب (2)

وقبل تحديد الرؤية الاجتماعية التي تبناها

---

1 - محمد عابد الجابري - من أجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية - دار النشر المغربية - الرباط - 1977 - ص : 152

2 - المرجع نفسه - ص : 152 - 153

الرواغي (محمد زفزاف) ، وحصر علاقة الشخصية الرئيسة في هذه الرواية بالغرب ، نحاول أن نضع هيكلة قريبة لهذه الرواية ، تسهل القيام بمهمة الكشف عن المضمون الفكري فيها .

ان الفصل الاول - في هذه الرواية - يشكل منطلقا أساسيا لبناء الحدث الحكائي ، أو بالاحرى هو يشكل المنطلق السردي للبطل . فالشخصية الرئيسة (محمد) يلتقي بصديق له ، قادم من بلاد الغرب ، فيحكي له عن مغامراته ، وعن اعجابه بالحياة الغربية .

وتتحدد رؤية هذا الصديق ، من زاوية سخطه على الوضع الاجتماعي في بلاد المغرب ، ولذلك نجده يرضى بالانسلاخ التام عن هويته الوطنية والارتماء الكامل في أحضان الغرب : " انني أحب أوربا" (1) .

كما يتجلى هذا الموقف من خلال المقارنات التي قدمها (الصديق) لمحمد ، وقابل فيها بين الحياة في بلاد الغرب والحياة في المغرب :

---

1 - رواية (المرأة والوردة) تقديم أحمد البابوري - الشركة المغربية للناشرين المتحدين - ط2 - عام 1979 - ص : 20

- " اننا محظوظون في أوربا أكثر مما نحن عليه هنا في الدار البيضاء "(1)

- " هنا تسرنا أقلية بيضاء من المغامرين والقوادين و بائعي نسائهم ، فيبنون الشركات ويستثمرون الاموال " (2)

- " لا مكانة لك ، أو لي هنا ، في هذه المدينة الكبيرة ، الاّ اذا كنت ذا بشرة بيضاء ، وتتكلم الفرنسية بطلاقة الباريسيين " (3)

- " هؤلاء الشرطة أميون جهلة ، قادمون من البادية ، تحولوا من مكانهم وراء الماشية والابل الى مكان آخر وراء الشعب ، يرفسونه ويذلونه "(4)

- " انني لا أقبل وظيفة هنا ، في الدار البيضاء حتى لو تقاضيت ألف درهم ، لأني هنا أشعر بأن

---

1 - الرواية - ص : 19

2 - المرجع نفسه - ص : 19

3 - المرجع نفسه - ص : 19

4 - المرجع نفسه - ص : 19

انسانيتي مفقودة ، ولكن هناك (أى في أوربا) تستطيع أن تصير ما شئت " (1)

- " أوربا هي التي أخرجت الرجال وستخرجهم (2)

يتجلى العنصر الاول في موقف هذه الشخصية في انتقاد الوضع الاجتماعي المغربي ، بما في ذلك اظهار الاستغلال الاقتصادي الذي تمارسه بعض الفئات أو الطبقة العليا في المجتمع ، ثم في اظهار التسلط والتبعية الفكرية الى الغرب .

يبدو أن من المستغرب أن ينتقد الصديق البورجوازية المغربية بكونها تابعة للغرب في الوقت الذي نراه - هو أيضا - ينسلخ عن هويته المغربية ، ليهرب الى أوربا ، ويمضي في تمجيدها ، غير أن الواقع نفسه كان يحتوي على مثل هذه النماذج البشرية المهزوزة ، والتي تعيش ازدواجية فكرية

أما العنصر الثاني في موقف هذه الشخصية فهو يتجلى في انسلاخها الكامل عن واقعها ، وتمجيدها للغرب ، واختيارها الاقامة الدائمة فيه .

---

1 - الرواية - ص : 19

2 - المرجع نفسه - ص : 22

ان الموقف النهائي من الوضع الاجتماعي المغربي، ومن طبيعة العلاقة مع الغرب ، لاينبغي أن يحدد انطلاقا من هذه الشخصية التي لا تظهر الاّ في الفصل الاول .

ان من الملاحظ أن الروائي لايقدم هذا النموذج ، كاختيار نهائي ، ولكنه يقدمه كمنطلق أو كنموذج قابل للاختبار والتجربة . ان الصديق هو مثال نمطي للشخصية المهوسة بالغرب ، والتي تقترح سلوكها نموذجا للاحتذاء، لهذا نرى الصديق يحث (محمد) على المغامرة في بلاد الغرب :

- " اذا أتيت الى هناك ،، ستجدني في أمستردام ، وسأقدم لك أية مساعدة ، يجب أن تفكر في بناء المستقبل ، لشاب مثلك يحمل أفكارا مثل أفكارك لن يكون له مستقبل هنا ، لا في الدار البيضاء ولا في طول المملكة السعيدة وعرضها ، اني أنصحك كصديق ، أن تركب المغامرة ، لا تخف ... كن شجاعا " (1) .

وعلى الرغم من أن الصديق ينطلق من موقف

---

1 - الرواية - ص : 22 - 23

انتقادي للوضع الاجتماعي في بلاد المغرب ، فان علاقته بالغرب لم تكن علاقة انتقادية واعية ، ولكنها كانت علاقة استلاب وانبهار فهو - مثلا - ينطلق من مبدأين :

- أولهما ، مبدأ اللاّنتماء :

- " أنا لست ثوريا ، ولا أيّ شيء ، لا أعرف شيئا من هذا " (1)

- وثانيهما ، مبدأ اللذة واشباع الحاجات الذاتية :

- " آكل وأشرب ، وأرتدي أفخر الثياب ، وأنكح أجمل النساء " (2)

وما دام الغرب يسمح له بالتحرر من أي التزام اجتماعي ، ولأنه يبعده عن بلاده ، ويوفر له جميع الامكانات ، لاشباع رغباته ، فهو اذن المكان المفضل للاستقرار ، ويبقى بعد ذلك أن جميع الغايات تبرر الوسائل . وهو يعترف لصديقه محمد أنه كان يحصل على المال، بتهريب الحشيش والمتاجرة فيه

---

1 - الرواية - ص : 19

2 - المرجع نفسه - ص : 21

فممـا لاشك فيـه أن هـذه الشخصيـة النمطيـة التي انسلخت عـن الـواقـع الـذي انحـدرت منـه ، والتي قـامت بتفجيـر كبتهـا الاجتمـاعي والسيـاسي والاخـلاقي والنفسي ، في بيئـة غريبـة ، وبوسـائـل غيـر انسـانيـة ، هي صورة مقـاربـة لشخصيـة (عمـر) في روايـة (الغربـة) (1) . ولكنهـا أكثـر انحـلالا وتفسخـا ، بـل هي نمـوذج يضـع نفسـه كاختبـار أمـام (محمد) في (المرأة والوردة) .

وقـد وجـد محمد نفسـه أمـام رغبـة أكيـدة في أن يجـرب المغـامـرة على النمط الـذي تمظهـر لـه فـي شخصيـة صـديقـه ، وقـد عبـر عـن هـذه الـرغبة بقـولـه :

- " ... لكني كنت متيقنـا من شيء ، وهـو أنـه نفـخ في روحـا جـديدا ، حتى كنت راضيـا عـن نفسي "(2)

وبالفعـل ، فالروايـة تنطلق - في جميـع فصـولهـا البـاقيـة - للتتبـع مغـامـرة (محمد) في بـلاد الغرب .

ويمكـن تصـور التركيب الهيكلي العـام للروايـة

---

1 - لمحمد زفـزاف

2 - روايـة المرأة والوردة - ص : 23

على الشكل التالي ، حيث يمثل الفعل الاول حافزا وتمثل الفصول الباقية تجربة محمد :

فعل 1	ف 2	ف 3	ف 4	ف 5	ف 6	ف 7	ف 8
الحافز الصديق	التجربة محمد						

ينبغي أولا ، وقبل متابعة تجربة محمد، أن نسجل بعض الملاحظات المتعلقة بالدافع الذي جعل هذه الشخصية (الرئيسة) ، تقع بسهولة في شراك الاغراء ، وتستجيب بمثل هذه السهولة للحافز الذي جسده الصديق ، ذلك أن الرواية تبرر هذا الانطلاق في البحث عن عالم آخر أكثر تجاوبا مع النوازع الفردية للبطل ، أو الشخصية الرئيسة ، بوضعها الاجتماعي الخاص الذي يتميز بحالة الفقر المزرية ، التي كانت تعيشها تلك الشخصية : " حركت قدمي ، وتذكرت كل ماضي السيّئ

الذي عشته واحدا مثل الملايين في قرى قذرة ، منتشرة في جبال الاطلس ، أو جبال الريف ، أو السهول الشاوية ، أو صحراء طانطان المترامية ، وتذكرت صوت الآلام الكثيرة التي قصمت ظهري الضعيف " (1) .

واذا كان في هذا الموضع يصور البؤس الاجتماعي العام في بلده ، ويصور معه معاناته الذاتية ، فان الروائي جعل بطله يتحدث عن فقر عائلته أيضا ، وما كانت تعانيه من جوع ، وما كان يعانيه هو من خوف ورهبة في وسطه الاسروي المتفسخ :

" في سنوات معينة - سنوات منطبعة بحد السكين في ذاكرتي وقلبي ، كنا نعاني من الجوع الشديد ، والفقر ، وقبل اذاك ، ان العالم كله كان يجتاز أزمة اقتصادية ، غير أنه في حقيقة الامر، لم يكن العالم هو الذي يجتاز هذه الازمة ، ولكن العائلة ، عائلتي أنا ، لذلك كان أبي يعود بأيّ شيء يستطيع أن يملأ البطن حتى ولو كان براز بعض الحيوانات . وكان من العسير والصعب العثور على الخبز . . . كنا نأكل أيّ شيء . . أيّ شيء """(2).

---

1 - الرواية - ص : 63

2 - المرجع نفسه - ص: 42 - 43

ان مظهر الجوع اتخذ - حسب رؤية محمد - وضعا لا انسانيا في وطنه ، حتى أن الانسان لا يتورع عن القتل من أجل نصف درهم

كما ركز الروائي اهتمامه بشخصية المثقف ، باعتباره مثقفا فاشلا ، لم تقنعه الكتب التي قرأها ، في توفير لقمة يسد بها رمقه ، مما جعل أخته تلح عليه بالسؤال : " كيف أن كل الكتب التي قرأتها عاجزة اليوم عن اطعامك " (1)

يضاف الى ذلك كله ، أن الشخصية الرئيسة (محمد) كانت متهمة بقتل أبيه (2)

كل هذه الاسباب جعلته يبتعد عن واقعه المزري للارتماء في أحضان الغرب . والسؤال المطروح الآن : هل سيصبح محمد شخصية مشابهة تماما لصديقه الذي قدمه الروائي كمثال قابل للاحتذاء ؟

نسجل قبل الاجابة عن هذا السؤال ، أن موقف الشخصية الرئيسة من الواقع موقف انتقادي وهو لا يقوم على أساس تحليل بنائي للمجتمع ،

---

1 - الرواية - ص : 51

2 - المرجع نفسه - ص: 95

ولكنه ينطلق من موقف معاناته الشخصية لهمومها الذاتية ، فما دام هناك فقراء - وهو منهم - وما دامت هناك مجاعة ، وبحث عبثي عن العمل ، فان المجتمع غير انساني ، ومن هذه الناحية - على الاقل - تلتقي الشخصية مع المثال ، الذي يقدمه الروائي من خلال الشخصية الاولى ، في الفصل الاول من الرواية ، وذلك في كونهما معا يدينان الواقع الاجتماعي ويعلنان افلاسه وانسداد آفاقه ، لأنه مجتمع يقوم على التفاوت الفئوي ، وعلى الاستغلال والقهر. فاذا كان الصديق قد عبر عن انسجامه الكامل بعد اختياره بلاد أوربا وانسلاخه عن التفكير في بلاده . فما الذي انتهت اليه تجربة محمد ؟ وهذا السؤال ، يعيدنا ، بشكل واضح ، الى مضمون التساؤل الذي سبق أن طرحناه .

لقد اعتبر نقاد كثيرون هروب محمد الى أوربا ، استلابا كاملا أمام القيم والاخلاق الغربية (1) والظاهر أنهم استندوا - في هذا الرأي - الى نوعية التجارب التي مرّ بها محمد ، في بلاد الغرب . كما استندوا ايضا في كون غالبية الاحداث الروائية ، جرت بمدينة شاطئية صغيرة في اسبانيا ، غير أنهم لم يلتفتوا الى تطور مواقف هذه الشخصية

---

1 - للتوسع في موضوع الشخصية المستلبة - انظر مثلا : بشير بويجرة - المرجع السابق - ص : 159 - 182

وهـي تخـوض تجـاربهـا في الغرب .

والـواقـع أن مـا ورد في نهـايـة الروايـة (المرأة والوردة) شجـع كثيـرا مـن أولئـك النقـاد على القول بـأن هـذه الروايـة تجعـل شخصيـاتهـا تختـار الغرب ، منسلخـة بـذلك مـن مشاكلهـا الخـاصـة داخـل وطنهـا ، تقـول هـذه الشخصيـة في نهـايـة الروايـة : " سوز ، ، ، أحبـك وأحب الدانمـارك ، انتظـر دائمـا أن تنقـذيني ، أحبك ، أحبـك ، أحب ، أح أ . أ . الخ . الخ ."(1)

هـذه النهـايـة ، جعلت بعض النقـاد يحـددون هـويـة الشخصيـة المنبهـرة مـن زاويـة الاستـلاب نحـو الغرب ، لأنهـا اختـارت التعلق بسوز في نهـايـة الروايـة .

يـرى سعيـد علوش أن " غيـاب الـوعي بحقيقـة العـالـم الغربي ، والتعـامـل معـه على أسـاس اشبـاع الرغبـات الـذاتيـة ، جعـل الشخصيـة الرئيسيـة للمـرأةوالوردة تقـع ضحيـة القيـم التبـادليـة في هـذا العالـم"(2)

أمـا ابراهيـم الخطيب فيـرى في رحلـة هـذه الشخصيـة الى الغرب " ضـربـا مـن الحلـم ، ولكنـه الحلـم

---

1 - الروايـة - ص : 110

2 - الظاهرة الاطوبيوغرافية بالرواية في المغرب العربي - مجلـة أقـلام المغربيـة - ع 9 - ابريل 1979 - ص : 19 - 20

الذي يعجز بصورة مزدوجة عن تخليص نفسها (أي الشخصية) من الايديولوجية الاستعمارية ، والاستعمار الجديد ، تبعا لعجزه الطبقي عن فهم الآخر فهما نقديا داخل التاريخ ... هذا العجز الذي يكرر نفسه في عجز آخر عن تحليل الشروط الذاتية " (1)

والواقع أن من الصعب القول ان هذه الشخصية لم تظل متعلقة بمثال الغرب ، خلال تجربتها كلها أو أنها لم تنته الى اختيار الغرب ، لأننا نجد هذه الشخصية تظل متعلقة حتى النهاية ، بالغرب ، باعتباره مصدرا لحل مشاكله الذاتية ، التي كانت تعانيها في الوطن (المغرب) .

وهنا نتساءل : هل معنى ذلك أن الروائي جعل(محمد) شخصية مطابقة تماما للمثال (الحافز) ، الذي قدمه في الفصل الاول من هذه الرواية ؟

يعتبر هذا السؤال جوهريا ، اذا نحن أردنا تحديد موقف الشخصية الرئيسة (محمد) في رواية (المرأة و الوردة) ، سواء موقف تلك الشخصية من الواقع

---

1 - المرأة والوردة ، الواقع والايديولوجية - مجلة أقلام - المغربية - ع4 - نوفمبر 1972 - ص : 72 - 73

الاجتماعي الذي كانت تعيشه في الوطن ، أو موقفها من الواقع الاجتماعي الغربي ، الذي فضلته مجالا لتجاربها ومغامراتها .

وهنا نبادر الى القول ان شخصية محمد ليست نسخة مكررة لشخصية الصديق (المثال) الحافز ، وهذا بالرغم من وجود نقط الالتقاء التي تجمع بينهما . انهما يختلفان في موقفهما من الغرب ، فهوس الصديق بالغرب قائم على اختيار نهائي لارجعة فيه ، في حين ان هوس محمد بالغرب ، مصحوب - على الدوام - بروح انتقادية لا نجد لها عند الصديق أثرا . تلك الروح الانتقادية للواقع الغربي ، التي ينفيها ابراهيم الخطيب ، ويصر على عدميتها في هذه الرواية (1)

ومن الملاحظ أنه لكي يثبت هذا الناقد انعدام الروح الانتقادية للغرب عند شخصية محمد ، راح يستشهد خطأ بأقوال الصديق (أوربا هي التي أخرجت الرجال وستخرجهم) (2) .

اننا لما نعود الى النص الروائي ، نجد الصديق هو الذي يقول بالفعل هذا الكلام وليس شخصية محمد .

---

1 - المرجع السابق - ص : 72 - 73

2 - المرجع نفسه - ص : 72 - 73

لقد كان في امكان ابراهيم الخطيب أن يستشهد بكثير من مقاطع الرواية ليبيّن تمجيد محمد للغرب ، مع الاشارة الى أن هناك جوانب كثيرة تؤكد أن شخصية البطل انتقدت الغرب اللانسانيي ، فعلاقته - مثلا - بالشخصيات الفرنسية التي التقى بها في المدينة الاسبانية الصغيرة (طوريمولينوس) لم تخل من التوتر والكراهية المتبادلة ، ذات الجذور الدفينة ، التي يمكن ربطها بالعلاقة بين المجتمعات المتخلفة وعقلية بعض الاوروبيين المتعالية لذلك لم تكن بين محمد و(جورج) و (آلان) علاقة تصالح كاملة ، فحتى عندما رحل الى الغرب وجد نفسه يعامل كانسان من الدرجة الثانية ، فالنتأمل هذا الحوار : (1)

- قال آلان :٪ نحأخذها الى البلاج ، ونتعاقب عليها

- قال جورج : نحن من الامام والعربي من...

- قلت لجورج : هيه .. هل تعتقد أني أبله ؟ الفتاة لطيفة ولا تستحق ذلك

- قال آلان : انك أكثر من أبله ، وماذا يفعل العرب الذين هم في باريس ؟

---

1 - الرواية - ص : 47

لقد عبر البطل عن استيائه وغضبه بالابتعاد عنهما (غضبت ووقفت ، اتجهت الى الفيترينة وأخذت أتأمل العناوين من جديد . وسمعت جورج ينادي علي ، ولكني لم التفت أحسست بكف توضع على كتفي ، التفت فكان جورج ، قال وهو يضحك

- هل غضبت ؟ اننا نمزح فقط ." (1)

غير أنه في مرة أخرى ، عبر عن غضبه من الغرب حينما أثار (آلان) حساسية العنصرية أمامه ، وهو يخاطب (جورج) قائلا :

- انه يسخر منا ، جورج لا تغامر مع هذا العربي ، اني أعرفهم جيدا . (2)

فيرد محمد عليه ، بما جاء في الرواية : (3)

" لم أشعر فضربته على وجهه بلكمة ، ألقيته وسط الحرج ورأيته ملقى وسط الحشائش ، وهو يضع كفه على وجهه"

ان حساسية البطل (محمد) في الرواية - حتى وهو يرتاد بلاد الغرب - كانت قوية ، فلم يكن منهمكا في تجربته خارج وطنه .

---

1 - الرواية - ص : 47

2 - المرجع نفسه - ص : 77

3 - المرجع نفسه - ص : 78

لعل أهمية الشخصية وحيوية الحدث الروائي وأصالته ، تكمن في هذا الجانب الخفي من روح الشخصية الانتقادية ، التي صاحبتها الى بلاد الغرب اذ لم يتعامل محمد مع المرأة الغربية بغريزة ذات بعد واحد ، هو الجنس . وهذا بالرغم من أن الجنس يشكل في الرواية هاجسا قويا ، وهذا ما يؤكده سعيد علوش أيضا (1) .

فمحمد كان يتعامل مع المرأة الغربية تماما مثل تعامله مع رجال الغرب . فالمرأة ، فوق أنها كانت موضوعا لارضاء رغباته الجنسية ، نراها تعبر عن أفكارها الغربية أيضا ، وتدخل مع محمد في حوار ،له خلفيات حضارية ، يتجاوز اطار الجنس ، ففي الحوار التالي ، تظهر المرأة لا كموضوع جنسي ، ولكن كأيديولوجيا ناطقة بمضمون الفكر الرأسمالي ، المتحامل على الجنس العربي :

- أعتقد أنك لا تحبين الحروب ؟

- لا أحبها

- لماذا وضعت في ذهنك صورة محارب ؟

- لكي أغيظك ، أعرف أنك العربي الوحيد الذي يرفض الحروب

---

1 - سعيد علوش - المرجع السابق - ص: 17

- من قال لك ذلك ؟

استنتجته من كلامك السابق .(1)

تتعدد في (المرأة والوردة) مشاهد الجنس وشطحاته حتى لا يكاد يخلو فصل من مفاتنه ومغرياته ، ويتجاوز الروائي الحدود العرفية التي وقف عندها الادب المغربي المعاصر ، في هذا المجال ، فيتحدى الأعراف اذ يبدو لاول وهلة ، أن الجنس مقصود لذاته ، فهو رديف اللذة الحسية التي كثيرا ما يفتقدها الانسان في العالم الاسلامي .

لهذا كله ، لايتردد البطل في الاعلان عن أنه لم يشتغل مدة أربع سنوات ، حيث كان مشغولا بالاكل والشرب ومداعبة النساء الجميلات ، وهو لايكتفي بهذه الاشارة الى أعماله الجنسية ، بل هو يضيف ، مؤكدا ما سبق أن أعلن عنه ، أنه كان هذا هو هدفه في النهار ، يقول : اني كنت " أبيع حصة أو حصتين من الكيف ، وفي الليل أمضي الى علب الليل أمر بها كلها تقريبا ، أراقص فتياتها ، وأنكح الاخيرة ، التي تبقى بين يدي (2) .

وفي اطار الدفاع عن اختياره الاباحي يحاول

---

1 - الرواية - ص : 57

2 - المرجع نفسه - ص : 21

البطل أن يحدد قاعدة فلسفية لسلوكه تتمثل في رفض الزيف الذي يسود أخلاق المجتمع وعلاقات الناس ، مؤكدا أن هذه هي أروع حياة يمكن للمرء أن يعيشها : " ألا تعتقد معي أن هذه أروع حياة يتمنى المرء أن يعيشها ؟ لماذا يفتعل الانسان أخلاقا يرغب في طرحها ونبذها . سمني ما شئت ، ولكني متأكد من أن هؤلاء الاوباش الذين يمرون أمامك يرغبون في فعل ما فعلت ، وهم لايتورعون لفعل ذلك من أن يقتلوا أو يكذبوا أو يبيعوا أنفسهم ، الواحد منهم ما ان يرى امرأة حتى ينسى الدائرة التي تحيط به . هدفه الوحيد هو أن ينكح ، وينكح حتى يغمى عليه . ويشدد على زوجته ، في حين انهما تنكح مع الحلاق الذي يسكن تحت شقته أو مع متعلم الفران الذي يأخذ اليها الخبز أو مع الحلاب ، أو مع أي كائن له عضو قائم . ألا ترى معي أنهم بلداء وبلهاء ؟ تقول انني أقسو كثيرا أعتذر اذن ، أنت الذي سألتني عن حياتي ، وهاأنا أجيبك"(1)

وفي تكرار بعض المشاهد في الرواية ما يوحي أن الروائي لم يخرج - في المرحلة الثانية - لا عن اطار البطل الحاد المزاج ، الذي يحاصره الفراغ والاختناق والعبث،

---

1 - الرواية - ص :21

ولا في جـــو الجنس الآلـــي ، وفي ذلك نكـــوض الى الوراء بالنسبة للقـــالب الفني ، وللتحليـــل التقني ، وللقضـــايـــا التي كـــانت رواية (المرأة والوردة) مسرحـــالهـــا .

فشخصيـــة محمـــد لا تنطلق مـــن العبث المطلق ، ولا تتيه في غمـــرات رومـــانسيـــة ، بـــل تحـــاول أن تمنطق سلوكهـــا وفق منظـــور خـــاص ، ، بالرغـــم مـــن أنهـــا ترجع كـــل شـــيء الى دائيـــرة الجنس ، فتـــرى أن الاسبان لا يحرصـــون شـــواطـــيء السبـــاحـــة ، الا مـــن أجـــل صيـــد الفتيـــات ، بـــل هي تتجـــاوز هـــذه الظـــاهـــرة لتصبـــح ايقـــاعـــا جنسيـــا يشمـــل الطبيعـــة كلهـــا ، " عنـــدمـــا استمعت الى صوت الامـــواج القريبـــة تخيلت أن الاسمـــاك تفعـــل مثلنـــا ، وأيضـــا عنـــدمـــا انتهت الينـــا الضوضـــاء تخيلت أنهـــم يفعلـــون مثلنـــا في الفنـــادق ، أو في الشقق ، ظلت الحشرات تفعـــل مثلنـــا ، وهي تقفـــز مـــرة فوق ومـــرة تحت ، ، ، وأحيـــانـــا كـــانت الحشرات تصمت لكنهـــا تتنفس تنفســـاعميقـــا غريبـــا ، وأحيـــانـــا أيضـــا ، تلهت لهـــاتـــا دافئا.... كانت الحشرات زوجيـــن زوجيـــن :...(1)

ولا يكتفي البطيـــل بالاشـــارة الى هـــذه السنفـــونيـــة الجنسيـــة التي تنطلق مـــن جميـــع أرجـــاء الكـــون ، بـــل

---

1 - الروايـــة - ص : 37 - 38

هو يضيف الى ذلك ، أن ما يسمى عاطفة حب ليس الاّ لذة جنسية مقنّعة ، " دخلت عارية من المطبخ ، وجاءت الى الشرفة ، رأيت كل شيء ، ورأت كل شيء ، كنت عاريا فرأت كل شيء ، فأمسكنا أنفسنا ،وفتحنا سيقاننا ، وتبادلنا بعض العواطف الصادقة التي لا شك فيها "(1) .

يمكننا أن نستخلص من هذا أن جميع العوامل التي تتحكم في الكائنات الحية ترجع الى قانون أسمى هو الجنس ، بمعناه الحسي المباشر ، غير أن الايمان بالجنس له قواعد وأهداف في (المرأة والوردة) ، كما أن له عدة مستويات ، بالرغم مما يبدو من تهالك على اللذة ، ومن تضحية من اجلها ، ومن تقديس لها ،

ان البطل في هذه الرواية غارق في عالم الجنس ،فهو يدين أحيانا اللذة التي تعتمد غلى العنف ، كما يرفضها اذا كانت تجارة ، بل يذهب الى أبعد من ذلك عندما يصبح الجنس انحرافا " هنا تسيرنا أقلية بيضاء من المغامرين والقوادين وبائعي نسائهم "(2) .

يبدو أن هذا الفهم الثاني للجنس ليس أقل تجذرا في وجدان البطل (محمد) ، وهذا ما يضبح بدوره في بعض المواقف ، تعبيرا غير مباشر عن رفض قيم اجتماعية

---

1 - الرواية - ص : 52

2 - المرجع نفسه - ص : 19

وأخلاقية وسياسية سائدة .

واذا ما تتبعنا شخصية البطل في ثورته الجنسية ، وفي ذبذبات لاشعوره ، تبين لنا أنه انتقل من طور الجنس الى طور الحب ، مشخصا في (سوز) التي كانت في البداية مصدر لذة ، ثم صارت تدريجيا أسمى من ذلك ، مصدر حب

صارت (سوز) ، أولا وحيدة جنسها ، ساحرة ، تعيد للعالم توازنه بعد اضطراب ، وانسجامه بعد فوضى ، وفرحته بعد اكتئاب ، " شعرت أن (سوز) لا كأيّ امرأة أخرى ، تعرف كيف تساهم في اعطاء العالم الحنان والعذوبة والتناغم " (1) .

كما صارت (سوز) تمثل ما بعد اللذة ، وما فوق اللذة ، انها ذلك الكائن المجهول الذي نقل البطل من المطبخ والشرفة والسيقان ... الى مطلق من نوع خوص " وضعت سوز كل جسدها تحت تصرفي ، شعرت بالدفء والحرارة وكل شيء (2) .

وبفضل سوز ، الشخصية الساحرة القادرة على امتلاك

---

1 - الرواية - ص : 56

2 - المرجع نفسه - ص : 55

قلب البطل ، لم يبقى الجنس كابوسا هاجسا ، بل متنفسا وأملا ، " صمتنا بهدوء . أخذنا نتنفس باستراحة المحاربين شعرنا بالامن في العالم . كان العالم كبيرا ، لكنه صغير تحت ملكنا ، على الاقل ، تحت ملكي الخاص . يمكنني أن أذهب أينما أشاء وأحل أينما أشاء . فلا أحد ولا شيء يمنعني . هذه احدى اللحظات التي أشعر فيها بالرهبة وتباطؤ أنفاسي ، تصير رتيبة . تتوالى بحرية وهدوء و فاعلية . أفقد التوتر وأعترف لنفسي أنها صارت حرة . تعيش حرية مطلقة عفوية تتضخم حريتها ، وتنمو في الوقت الذي تسقط فيه كل العراقيل التي نماها الماضي ، وولدتها تجارب بسيطة ، ومعقدة في نفس الوقت " (1) .

وبهذا الصدد ، نشير من جديد الى أن رواية (المرأة والوردة) ، بالرغم مما يبدو في تفاصيلها من طغيان الجنس العاهر ، فان لها سمات الاصالة التي تتمثل في ادراكها لتشابك النسيج النفسي وتعقده ، وفي تسجيلها لترانيم الغريزة ، وترتيل العاطفة ، وزمجرة التقاليد على مستوى الشعور واللاشعور .

ثم ان البطل (محمد) ، عندما كان منغمسا في عالم الجنس والمخدرات ، كانت تنتابه بين الحين والآخر

---

1 - الرواية - ص : 55

صحوات من الوعي ، بأنه شخصية ضائعة في بلاد الغرب . واذا كان يشعر بأنه مستلب ماديا في الغرب، فهذا يعني أنه لم يكن مستلبا على الاقل من الناحية الفكرية ، لأنه كان واعيا باستلابه . فمغامراته الجنسية الكثيرة ، والمتواترة ، لم تكن تعني انحلالا وتفسخا بقدر ما كانت وسيلة من وسائل العيش في أوربا .

وهنا يدرك البطل أيضا ، أنه أصبح بضاعة في بلاد الغرب ، بضاعة قابلة للرواج في سوق استهلاكي .

لم يكن محمد يظن أنه قابل ليتحول - يوما - الى موضوع يستغل فيه جنسيا ، من نساء أوربا فحسب ، ولكنه كان يخشى أيضا أنه يمكن أن يصيح مستغلا من رجالهن أيضا .

لقد تعمدنا التركيز على جوانب الوعي عند بطل (المرأة والوردة) ، وهذا نظرا الى أن الدراسات التي تناولت هذه الرواية ركزت على جانب الاستلاب فقط ، أو جانب الانبهار بالغرب ، على أننا لا ننفي وجود هذا الانبهار ، ولكن ما نقصد اليه هو أن تجربة محمد هذه ، تعكس حبه للغرب أو أوربا ، كما تعكس - في الوقت نفسه - كراهيته لها .

لقد اتخذت صورة الانبهار بالغرب والانغماس في أوحاله أشكالا عديدة ، وكان انغماس محمد أحيانا في اللذة والجنس يشعره بأنه وصل الى لحظة السعادة :

" سوز ، الحب ، الجنس ، والخمر جميع آلهات اليونان أصبحت أمامي ، ديونيروس ، وأنا أيضا اله ، سأسمي نفسي محمدوس ، اله هذه الاشياء جميعها ، لماذا الموت ، وأنا أشمّ رائحة عدن ، بل أعيشها ؟ " (1) .

وتتجلى فلسفة اللذة الحسية عند البطل واضحة ، ولا شك في أن هذا المفهوم للذة ، هو وليد المجتمع الاستهلاكي الذي يجعل قيمة الاشياء - حتى المعنوية منها - فيمالها من مظهر حسي ، من شأنه أن يحدث اللذة أو المتعة ،

ويعبر البطل أحيانا أخرى ، عن حلمه بالحياة الارستوقراطية الغربية :

" آه يا الهي لتحي اسبانيا عندما أشرب الشامبانيا ، وأسكن أفخم أوتيل وأرتاد أغلى المراقص . آه يا الهي ، لتحي اسبانيا عندما أستطيع في أرذل العمر أن أحصل على شابة ، جميلة ، لكنها فقيرة ، لتحي اسبانيا ، لتحي اسبانيا ..."(2) .

---

1 - الرواية - ص : 79

2 - المرجع نفسه - ص : 75 - 76

وفي مجتمع الاستهلاك يواجه البطل قيمة المال مواجهة حادة ، حتى أنه يرى بأن كرامة الانسان هي بقدر ما يمتلك من المال : " واذا لم أبالغ فالجيب هو الذي يعطي معنى لحياة الانسان . وأكثر من ذلك ، فالجيب هو الكرامة ، وهو الاحترام ، هو الوضعية ، وهوالمعنوية "(1) .

وبقدر ما يتناقص المال في الجيب بقدر ما تتناقص هذه الكرامة أيضا : " كرامتي اذن محدودة ، لاأستطيع أن أتحرك اذا لم تتحرك يدي في جيبي "(2)

مثل هذه الافكار التي تجعل البطل مشدودا الى الغرب وقيمه السائدة ، كثيرة في الرواية ، وموزعة هنا وهناك ، الاّ انها لا ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير عن كل أفكار البطل ، وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه جل الدراسات التي تناولت هذه الرواية ، حينما اجتزأت من النص الروائي ما يؤيد هذا الجانب الاستلابي .

اننا ينبغي أن ندرك هذه المواقف والافكار ضمن

---

1 - الرواية - ص : 28

2 - المرجع نفسه - ص : 28

التجربة العامة التي كان البطل يخوضها في الغرب، وهي تجربة لا تسير متواترة في اتجاه واحد . وهنا ينبغي مناقشة ابراهيم الخطيب حول هذه النقطة بالذات، فهو يرى أن البطل (محمد) لا يتعامل مع الغرب كتعدد ، ومستويات ، ولكنه يتعامل مع غرب وهمي ، له وجه واحد ، ويقصد بذلك الوجه الجنسي والمنفعي ، كما يعتقد أيضا أن الاشخاص الذين يتعامل معهم البطل ليست لهم هوية طبقية أو أيديولوجية، يقول: " بامكاننا الآن أن نلاحظ الدلالات الآتية :

أ - اعتبار الغرب - من خلال بعض أشكال السلوك - هوية بشرية واحدة ، أي (كلاً) متجانسا ، ويتمثل تجانسه بوضوح كذلك في ايديولوجية (التقدم) ، وهنا يمكن أن تنبه أيضا الى :

ب - غياب تحليل من النوع الطبقي ، فالفهم العام (بالمعنى السيئ) للأنا يقنن نفسه في فهم سطحي ، غير واقعي ، تحريفي ... لهوية الآخر ، ولهذا فان النص يكتب كل وضع طبقي للأشخاص في حين يعلن هويتهم الآنية دون تردد ، وهذا يعني أن النص :

ج - انما هو كتابة عن (وهم) الغرب الواحد ، يكبت واقع (الغرب - التعدد) " (1)

---

1 - ابراهيم الخطيب - المرجع السابق - ص 69 - 70

وقد قدمنا في السابق ، بعض الادلة على أن البطل لم يكن ينظر ببعد واحد الى الغرب ، فاذا كان منبهرا بتقدمه وتحرره ، فهو يتعامل معه أيضا ، كايديولوجيا استعمارية عنصرية ذات طبيعة استقلالية وهذا مايستخلص أيضا من خلال الخلفيات الاخرى التي تتجاوز الغرب (المتقدم) لتطرح لنا أيضا (الغرب اللانساني) مما يتأكد لنا أن هذه الشخصية لم تكن تتعامل مع الوهم ، ولكن مع حضارة مغربية ، غير أنها أيضا انسانية .

وفي اطار مناقشة اشكالية الاستلاب تجاه الغرب ، تلك الخاصة التي وصف بها بطل رواية (المرأة والوردة) ، ننتقل الى دراسة موضوع الانحراف أو الجريمة على اعتبار أن البطل كان يزاكمل شخصيتين فرنسيتين ، هما : (جورج) و (آلان) ، وأنه حاول معهما أن يقوم بتهريب المخدرات من المغرب الى اسبانيا ، وكان (جورج وآلان) يمارسان اللصوصية من قبل

ان الغرب - هنا - يعرض نفسه على البطل في وجه سيئ ، ويستحثه على خوض المغامرة ، والدخول في عالم الانحراف ، الذي ولّده الغرب ذاته ، كنتيجة لتحكم القيم المادية فيه .

فماذا كان موقف البطل في النهاية ؟ وهل أصبح نموذجا لصديقه ، الضالع في الجريمة والتهريب ؟

لنسجل هنا - بكل وضوح - أن بطل رواية (المرأة والوردة) لم يكن ايجابيا ، لأنه كان متأرجحا بين الطموح الذاتي والطموح الجماعي ، ولم يكن يفرق بين مطلب ذاتي ومطلب ثوري ، لأن هذين المطلبين ، يراهما بعيدين عن التحقيق .

كما أنه كان يعاني مأساة ، أكثر مما كان يبني رؤية مستقبلية ، لذلك يعلن بوضوح أنه لا يملك هدفا محددا ، بقدر ما يحاول اكتشاف ذاته بطريقته الخاصة ، بمعنى معرفة وضعه الخاص . ولذلك فقد أوصلته تجربته الجنسية الى أنه كان في حقيقة الامر صاحب مشاعر عاطفية .

أما تجربة الانحراف الاجتماعي (الجريمة) فقد كشفت - أيضا - جانبا آخر من جوانب شخصيته ، وهو يتعامل مع الغرب في أبشع منكراته ، وعندما أكدنا عدم ايجابية البطل ، فاننا لم نكن نعني أنه يتصالح مع الواقع ويهادنه ، ولكنه كان يدخل في علاقة احتجاج مع الواقع

السائد ، سواء أكان واقع بلاده أم واقع البلاد التي يحاول الهروب اليها ، ولم يكن يستطيع أن يتجاوز حدود الانتقال الى امتلاك رؤية واضحة أو متفائلة بالمستقبل .

على أن تفكير محمد - بطل الرواية - في تهريب المخدرات ، لا ينبغي أن يؤخذ كقرار ، أو كاختيار أو على أنه قد اندمج في لعبة الغرب أو ضاع فيها ، ولكن على العكس من ذلك ، فان الرواية تكشف من زاويتها الخاصة ، صلابة متجذرة في أعماق البطل تعارض بحدة لا شعورية كامنة ، سلوك الغرب الشاذ الذي يعرض نفسه للاحتذاء . وسنعمل على ابراز هذه الحقيقة ، مظهرين - في الوقت نفسه - الطابع الانتقادي الرافض لقيم الغرب عند بطل (المرأة والوردة) ، هذا الطابع الخفي ، الذي يتوارى - أحيانا - وراء النسيج الروائي .

تبدأ علاقة محمد بالانحراف في شكل اقتراح يطرحه (جورج) عليه ، حيث يطلب منه أن يشترك معه الى جانب (آلان) في نهب ما تملكه فتاة انجليزية غنية . علما بأن البطل قد رفض هذا العرض بحدة :

" قلت لا أوافق . انها طيبة ولا تستحق ذلك .

- وقال جورج : محتجا : أنت لاتصلح لنا اذن ماذا نأكل وبأي شيء نذهب الى المرقص ، ونجلس في المقهى ، انها غنية ، وتستحق ذلك ، كل الاغنياء يستحقون السرقة"(1)

ومع ذلك ، لم يستجب محمد لرغبتهما ، وانصرف عنهما . غير أنه في مناسبة أخرى ، وعندما يعرض عليه (جورج) المشاركة قي تهريب الكيف من مدينة (طنجة) الى أوربا ، يوافق . وان جاءت هذه الموافقة في شكل محفوف بالحذر والشك ، حتى أن (جورج) يتهم محمدا بالغموض وكثرة الحساسية والشرود ، وهي أشياء ينبغي أن لا يتصف بها المغامر .

- انك كثير الحساسية ، أنت لا تصلح لأشياء مثل هذه (2)

وكان محمد نفسه - عندما قرر أن يشارك معهما في عملية التهريب - يشك في امكانية نجاحه ، لهذا وصف محاولته بأنها ضرب من الطوباوية أو الخرافة أو الحلم . وبأحاسيس التردد وعدم الاقتناع ، وشدة الشرود، يذهب البطل مع (جورج) و (آلان) الى طنجة ، ويفشل في العملية ، اذ تظهر سذاجته ولا مبالاته في الطريقة

---

1 - الرواية - ص : 47

2 - المرجع نفسه - ص : 76

التي يحاول أن ينجز بها مهمته التي رسمها له (جورج) وعندما يرجع من تلك المهمة ، يقول له (جورج) :

- " أنت بليد (1)

وتنتهي المغامرة باختفاء (جورج) و (آلان) من وجه محمد الى الابد .

وهكذا لم تنته مغامرة محمد الى الفشل صدفة ، ولكنه كان يبيّت الفشل في أعماقه ، لأنه في حقيقة الامر - كان مرتبطا بنوازع أخلاقية متوارية خلف سلوكه ، وهي تلك النوازع نفسها التي حددت موقفه من الجنس ، وجعلته ينتهي الى قناعة تسمو به عن اللذة ، اذ رأيناه يمجد عاطفة الحب التي ربطته في النهاية مع (سوز) .

ونعود - الآن - الى ذلك الاختيار النهائي في الرواية ، اذ بالرغم من أن البطل رجع الى بلاده ، وعزم على العودة الى المدينة التي نشأ فيها (الدار البيضاء) ، فانه ظل - على الدوام - متعلقا بالغرب . وهو اختيار مبدئي واضح للغرب . ولكن بالنظر الى رؤية البطل

---

1 - الرواية - ص : 84

الانتقـاديـة للغرب ، فـان مثـل هـذا الاختيـار لا ينبغـي أن يفسـر - على الـدوام - بـأنـه ارتمـاء كـامـل نحـو الغـرب ، أو هـو خضـوع واستـلاب . فـلا ينبغـي أن ننسى أن الغرب بالنسبـة لجميـع الشعـوب المتخلفـة التي تربطها بـه عـلاقـات تـاريخيـة (استعماريـة) ، يعتبـر جـزءا مـن كيانهـا الـذاتي .

لهـذا ، يصبـح مو ضـوع اثـارة قضيـة الغرب عمليـة مشـروعـة ، وقـائمـة في صلب اشكـاليـة الـواقـع الاجتماعي في المغرب . ولا يمكـن اعتبـار هـذا الطرح على أنـه ارتمـاء في أحضـان الغرب وخضوعـالـه ، فالمسـألـة متعلقـة بنـوعية التعـامـل مـع الغرب ، وليس باثـارة مشكلـة هـذا التعامل فحسب ، ذلـك أنـه ، حتى أكثـر الافراد تشبتـا بالفكـر التقليـدي العتيـق - نراهـا منغمسـة ، مـن حيث تـدري ، أو لا تـدري ، في التفكيـر الغربي . فهي عنـدهـا تريـد أن تعطـي تقـويمـا لـذاتهـا ، تستعمـل المقـاييـس الغربية لتنجـز هـذا التقـويـم . ان الاصـلاحيـة السلفيـة - بالرغم مـن أنهـا كـانت تحمـل عـداءا واضحـا للقيـم الغربيـة ، فانهـا مع ذلك ، كـانت تحتمي في نهـايـة المطاف ، بعقلانيـة الغرب ، لتنقـذ نفسهـا مـن الضعف والتـواكـل (1)

---

1 - هشام شرابيي - المثقفون العرب والغرب - دار النهار للنشر عام 1982 - ص : 21 ، 48 - 49

ان أية رواية عربية ، ذات طابع ايديولوجي ، لا بدّ أن تكون مرتبطة بالضرورة مع بعض ملامح الايديولوجيات الغربية ، لأن الفكر الغربي - بشتى أنماطه ومستوياته - موجود فينا . ولذلك ففهمنا لذواتنا يمر قطعا عبر قناة الفكر الغربي .

لقد أدرك هذه الحقيقة - أيضا - عبد الكبير الخطيبي حينما قال : " هيا أيها الرفقاء ، لقد انتهت اللعبة الاوربية ، ولابد من البحث عن شيء آخر . التخلي عن أوربا ، والابتعاد عنها الى الابد ؟ أليس هذا وهما مادامت أوربا تقيم في كياننا ؟ زد على ذلك أن الكائن العربي هو في مشكلته القصوى ، كما نعتقد، غرب صعب المعالجة أكثر من أي وقت مضى " (1)

ان الفكرة الاساسية التي نستخلصها من هاتين الشهادتين هي أن الغرب دائم الحضور في نطاق الفكر العربي ، وهذا الحضور مسألة راسخة ، لأن علاقة العالم الثالث - عموما - بالغرب تمت ولا تزال تتم في اطار شمولي ، له علاقة بالتطور الانسانسي العام ،

---

1 - عبد الكبير الخطيبي - النقد المزدوج - دار العودة - بيروت عام 1980 - ص : 14

لهذا كله ، فوضع اشكالية العلاقة بالغرب واثارتها في الاعمال الروائية المغربية ، لاينبغي أن يفسر دائما بأنه استلاب من جهة الغرب ، ان مثل هذا التفكير يبقى أسير رؤية ضيقة وأحادية الجانب ، ترى في الغرب - دائما - وجها واحدا . ان الغرب ليس عالما متجانسا ، ولذلك فعندما ننظر اليه كوحدة ، وليس كتعدد نقع في أحد موقفين فاما العداء المطلق للغرب ، واما الارتماء الكامل في أحضانه .

على حين ، أننا ، عندما ننظر الى الغرب نظرة انتقادية ، يمكن أن يصبح شقاء وسعادة في الوقت نفسه ، ولذلك فهو يجسد استلابا وتحررا معا ، وهذه هي الحقيقة المأساوية التي تعكسها رواية (المرأة و الوردة) . ولذلك تميزت نظرة محمد للغرب بطابعها الانتقادي . وهذا ما جعلنا نؤكد في السابق ، أن محمدا لم تكن نظرته للمجتمع ايجابية ، بالمعنى الصحيح .

غير أن هذه الحقيقة لا تنفي - مع ذلك - الطابع الانتقادي للرواية ، مادامت تطرح في بنائها العام اشكالية الوضع الاجتماعي الداخلي ،فتبرر

التناقض بين مستويين من الحياة ، مستوى أدنى فيه فئات اجتماعية فقيرة ، ومستوى أعلى ، تمارس فيه فئات اجتماعية أخرى ، حياة مترفة ، دون أن تتورع عن ممارسة التسلط ، وفي الوقت ذاته ، فان النظر الى الغرب ، لم يكن في هذه الرواية كما أسلفنا ، أحادي الجانب مثلما وجدنا ، في رواية (في الطفولة) (1) ، حيث كان الغرب في نظر بطلها معيارا لقياس مستوى الحضارة المغربية ، ولكن كانت نظرتها (المرأة والوردة) ذات وجهتين ، وجه ايجابي ووجه سلبي ، لا انساني .

فعندما طلب محمد حلّ معضلته الخاصة من الغرب ، فهو لم يؤمن بالوضع الاجتماعي الداخلي في بلاده ، ولكن على العكس من ذلك يبرهن بموقفه هذا على صعوبة المصالحة بينه وبين واقعه الخاص ، وهنا تختلف نهاية الرواية مع النهايات التي وصلت اليها روايات أخرى ، كرواية (جيل الظمأ)(2) ورواية (اكسير الحياة) (3) ، ورواية (المغتربون) (4) .

---

1 - لعبد المجيد بن جلون

2 - لمحمد عزيز الحباني

3 - للمؤلف نفسه

4 - لمحمد الاحسايني

ذلك أن وهمية الانتقاد في هذه الروايات تنكشف عندما ننظر الى القناعات التي انتهى اليها أبطالها . فهي ليست قناعات هروبية ، مثلما هو الشأن في رواية (المرأة و الوردة) ، ولكنها كانت قناعات ذات طبيعة تبريرية أو انهزامية .

يبدو تعلق بطل هذه الرواية بالغرب دليلا من ناحية ، على عدم تصالحه مع واقعه الاجتماعي ومن ناحية أخرى ، وهذا هو الجانب السلبي في الرواية يبدو تعلقه ، دليلا على هروبه من المشاكل العامة والاكتفاء بالتفكير في تخليص ذاته فحسب .

ونذكر هنا ، أن علاقة محمد بالغرب ليست شبيهة بعلاقة صديقه الذي ظهر في الفصل الاول ، ففي حين كان هذا الاخير مرتميا في أحضان الغرب ظلت علاقة محمد بالغرب ، مصحوبة بوعي الطبيعة المزدوجة التي اتسم بها الغرب ، واكتفى بجعل هذا الاخير موطنا يلجأ اليه ، هروبا من المشاكل الداخلية .

وبعبارة أوضح ، فاذا كان الصديق قد جعل نفسه بوقا للايديولوجية الغربية السائدة ، فان محمدا لم يفعل ذلك وانما اكتفى بجعل بلاد الغرب مكانا

صالحا للهروب المؤقت من المشاكل التي كان يعانيها .

ان محمدا - بعد أن كشف - بشكل مختصر اشكالية الوضع الاجتماعي المأساوي في المغرب ، وبعد أن كشف تناقض الحياة الغربية ، يفضل الهروب بذاته من مشاكله الخاصة .

اننا ، عندما تحدثنا عن تقنية (المسخ) في رواية (المرأة و الوردة) - كنا نشير الى جانب واحد من جوانب حضور الغرب ، على المستوى الابداعي في هذه الرواية ، على أن حضور الغرب لا يقتصر وجوده ، ضمن هذه الرواية ، على ذلك الجانب وحده ، بل يتعداه الى تقنيات أخرى .

وقد أولى أحمد اليابوري عناية كبيرة لدراسة هذا الجانب ، وهذا من خلال تقديمه لرواية (المرأة والوردة) (1)

ان الكلام عن استحضار الغرب في هذه الرواية ، لا يصحّ بالنسبة للمضامين التي رأينا ها فحسب ، بل هو يصحّ أيضا ،بالنسبة للتعبير اللغوي والصياغة الفنية العامة .

---

1 - انظر المقدمة التي كتبها أحمد اليابورى لهذه الرواية - ص : 4 - 15

غير أن أثر المثاقفة أخذ يظهر بشكل أشد وضوحا ، في رواية (المرأة و الوردة) ، ولهذا نحاول - في نهاية دراستنا لهذه الرواية - أن نتلمس بصمات التغيير التي لحقت الاسلوب العربي في الرواية المغربية من جراء الاغتراف من الطرف الفنية في الكتابة الغربية ، ووجود هذا الملمح الغربي في أسلوب رواية (المرأة و الوردة) هو تأكيد أيضا ، بأن عالم الغرب لم يتسرب الى مضمون الرواية فحسب بل تسرب الى لغتها أيضا ، وشكّل في بنيتها قالبا غربيا ,

ومعنى ذلك أن تحولات المضمون الفكري في عقلية الروائيين المغاربة تفترض - على الدوام - تحولات هيكلية عميقة ، قائمة على بنية التركيب اللغوي عندهم .

لعل ادخال البنيات الحكائية الغربية في الرواية المغربية العربية ، لم يساهم في خلخلة العبارة التقليدية فحسب ، ولكنه وضع لبنة أولى في سبيل دمج الفكر الغربي ، باعتباره كيانا لغويا في مقومات الثقافة العربية المغربية (1)

ولهذا فليس من الغريب أن نبحث عن المقومات

---

1 - ابراهيم الخطيب - الكتابة بواسطة الغرب - مجلة أقلام - المغربية - ع5 - نوفمبر 978 1 - ص : 92

الغربيـــة في أســـاليب الاداء اللغـــوي داخـــل روايـــة ، ترتبـط أحـــداثهـــا بعـــالـــم الغرب .

لقـــد اقتحـــم عـــالـــم الغرب الكتـــابـــة الروائيـــة عنـــد محمـــد زفـــزاف ، فـأوجـــد لـــديـــه نمطـــا جـديـــدا مـــن التعبيـــر اللغـــوي ، يقـــوم على التـــوليـــد والاشتقاق والتفكيـــك اللغـــوي . فلكـي يعبـــر - مثـلا - عـــن جهـــل محمـــد أمـــام معـــرفـــة الفـــرد الغـربي ، لـــم يلجـــأ الـى الاســـلـــوب التقليـــدي المبـــاشـــر ، بـل اصطنـــع أسلـــوبـــا جـديـــدا ، عبـــر من خـــلالـــه ، بطريقـــة غير مبـاشـــرة ، عـــن هـذا الجهـــل .

ان هـذا الاسلوب دفـــع أحمـــد اليابـوري الى القـــول " ان الكـاتب حـاول استعمـال طريقـــة (جيمس جويس) في تعاملـه مـع اللغـــة ، اشتقـاقـا وتـوليـدا ومـزجـا "(1) .

ويظهـــر هـذا المزج والتفكيـك في معظـــم فقـــرات هـذه الروايـــة ، منهـا على سبيـــل المثـال هـذا الحـوار الذي يـدور بيـــن محمـد وسـوز ، حـول تمثـــال (دون كيخوت) :

- قـالت سوز : أوه ، رائـع ، دون كيخوتى دي لامانشا

---

1 - أحمد اليابوري - قراءة جديدة في المرأة والوردة - المحور الثقافي - 17 يونيو 1979 - ص : 3

- نعـــم
- فـوق حصـانـــه
- نعـم

بـــدأت تنظـــر ، ثـم انحنت بنصفهـــا الاعلـــى ، حتى لامســـت نظـاراتهـــا الزجـاجيـــة الـواجهـــة ، وقفت وأشارت بأصبعهـا

- رائـــع ، أليس كـذلـك ، مـا اســم حصـانـه ؟
- حصـان مـن ؟
- دون كيخـوتي
- مـن هـو د ون كيخـوتي ؟
- دون كيخـوتى دي لامـانشـا . دي لا مـانشـا دون كيخـوتي ، حصـان دون كيخـوتي .
- مـن دي لا مـانشـا دون كيخـوتي) ؟
- دون كيخـوتي حصـان ؟ ؟
- آه ، نعـم ، لا أدري
- آه ، نعـم لا أدري
- سـأشتـريـه غـدا
- طبعـا (1)

يبتعـد الروائـي (محمـد زفـزاف) - في هـذا الحـوار عـن الاسلـوب التقـريري ، ليعبـر ، لا بالجملـة ، ولكـن

---

1 - الروايـة - ص : 31 - 32

بالتركيب اللغوي غير المألوف ، اذ يتمظهر عدم الفهم الذي كان يعانيه بطل (المرأة و الوردة) أمام (سوز) على صورة اختلال في التركيب اللغوي فتتداخل الكلمات ، وتفقد معناها ، وتبلغ ذروة هذا التداخل في المثال السابق ، حتى أخذ البطل يخلط بين الكلمات ، ويسيء الى ترتيبها : (من دي لا مانشا دون كيخوتي ، حصان دون لامانشا دي كيخوتي حصان) (1)

أما التوليد اللغوي فنجد له بعض النماذج التي يتم من خلالها اشتقاق تركيبات متقاربة في صياغتها ،،لكنها تختلف في دلالاتها اختلافا كبيرا أونسبيا ، كل ذلك من أجل التعبير عن بعض المواقف الخاصة .

فاكي يعبر البطل عن سعادته المؤقتة بما بين يديه من قهوة يرشفها ، وظف الروائي بعض الصيغ اللغوية التي تتناسخ وتتوالد من أجل اقناعنا بأن البطل كان بالفعل يشعر بالسعادة ، وذلك بسبب وجود هذه الكأس الموضوعة أمامه :

---

1 - الرواية - ص : 31 .

و - أحمد اليابوري - قراءة جديدة في المرأة والوردة - المحرر الثقافي - 17 يونيو 1979 - ص : 3

" ... وعندما استرخيت فوق الكرسي ، أمام فنجان القهوة شعرت بسعادة حقيقية ، كانت عن أمامي ، جاهزة حاضرة في فنجان القهوة ، وفي صحن فنجان القهوة وفي قطعة السكر المتبقية . قرأت على الورقة (قهوة ديبوا)

" ثم تحولت الكتابة الى شئ آخر : (قهوة عدن) ، ثم (عدن ديبوا) ، ثم (عدن عدن) ، ثم (عد ن) ، وأزحت نظارتي ووضعتهما فوق الطاولة أمامي " (1) .

يقول أحمد اليابوري في تعقيبه على هذا : "لقد أصبحت الكتابة هنا أشبه بلعبة الشطرنج تتبادل مواقعها بطريقة ذكية ، رامزة احالات نفسية معقدة " (2)

يعتبر اللعب بالكلمات هنا ، استغلالا واعيا لامكانات التعبير اللغوي وطاقاته اللانهائية ، على التحول واخصاب عدد من الدلالات المختلفة انطلاقا من وحدات متقاربة فيما بينها .

والجدير بالذكر هنا ، أن الروائي لم يستعمل التراكيب

---

1 - الرواية - ص. 100

2 - أحمد اليابوري - المرجع السابق - ص : 3

التقليدية المألوفة للتعبير عن شعور بطله الخاص ، وانما اصطنع أساليب جديدة ، قائمة على اللغة نفسها ، ولكنها تتعامل معها بطريقة غير مألوفة .

وهكذا فالمنظومة اللغوية التالية : (قهوة ، ديبوا - قهوة عدن - قهوة ديبوا - عدن عدن - ثم عدن -) تظهر تلاعب الروائي بالوحدات اللغوية ، واستخدامه لتقنية تناسخ العبارات . فانطلاقا من الجملة الاولى التي يمكن اعتبارها جملة أصلية أو أساسية نجد اللفظين : قهوة و ديبوا . أما في الجملة الثانية فينتفي اللفظ الثاني ليحل محله لفظ (عدن) ، وفي الجملة الثالثة ينتفي اللفظ الاول ليحل محله لفظ (عدن) . وتأتي بعد ذلك الصيغة الاخيرة التي هي نتيجة منطقية لاختزال رياضي ، اذ ما دامت (عدن) هي (عدن) فقد اكتفى الروائي - في النهاية - بواحدة منهما .

وفي امكاننا أن نتصور المراحل التي قطعتها هذه المنظومة لتحصل على نتيجتها الاخيرة في الشكل التالي :

تركيب أصلي	تغيير أول	تغيير ثان	نتيجة	اختزال النتيجة
قهوة ديبوا	قهوة عدن	عدن ديبوا	عدن عدن	عدن

تبدو المنظومة اللغوية السابقة - اذا نظرنا اليها من منظار التركيب اللغوي التقليدي فاقدة لأية رسالة لغوية ، ولكنها ، اذا نظرنا اليها في سياقها الجديد ، الذي وضعها فيه الروائي فانها تؤكد الحقيقة التي سبق أن بسطها - فيما قبل - بطريقة تقريرية ، حينما قال : (كانت عدن أمامي جاهزة ، حاضرة في فنجان القهوة ، وفي صحن الفنجان وفي قطعة السكر المتبقية) (1)

فلكي يعزز هذه الحقيقة ، لجأ الروائي الى التلاعب بالكلمات ، ليخلص الى النتيجة النهائية وهي أن كل تلك الاشياء الصغيرة ، التي كانت أمامه

---

1 - الرواية - ص : 100

تعبر - في مجملها ، وبشكل صاف - عن أن البطل كان يعيش لحظة من لحظات جنة (عدن)

والجدير بالذكر أن اكتشاف خواص اللغة في هذا المضمار لم يتم بصورة تدعو الى الاهتمام الا في العصر الحاضر ، على أيدي اللغويين ، ولاشك في أن (محمد زفزاف) قد استفاد من النتاجات الروائية التي استغلت جميع الامكانات والحيل اللغوية الجديدة .

وفي هذا المجال يرى (أزولد دوكرو) أنه " بمجرد أن نعرف الدلالة الخاصة لعبارة ما ، فانه يمكن تنويعها الى أن نجد دلالة تقتضي تغييرا للجملة ، وبقدر ما نكتشف أنماطا دلالية ، متعلقة بحدوث ظاهرة ما ، بقدرما نعطي للغة ذاتها ، محاور دلالية متباينة " (1)

ان هذه الخصوبة التي يتميز بها التعبير اللغوي، قد استغلها الروائي استغلالا كبيرا ، في شتى المواقف ، نكتفي هنا ، بعرض نموذج منها :

---

1 - Oswold Ducrot - Qu'est ce que le structuralisme
Ed , de Seuil 1968 - P : 82

" مشيت وسطهم طويلا ، ومشيت وسطهم ، وأيضا مشيت وسطهم ، كذلك وسطهم مشيت ، ومشيت فخف الزحام "(1)

نتساءل هنا فنقول : لماذا لم يعبر الروائي عما أراده بجملة واضحة ومألوفة ، كأن يقول مثلا : (مشيت وسطهم طويلا الى أن خف الزحام) . ولكن من المؤكد أن مثل هذه الجملة (التركيب) لن يكون لها تأثير كبير على المتلقي ، بالدرجة نفسها التي يتمتع بها التعبير الاول ، لأن مثل هذه العبارة التي افترضناها تعد مألوفة ومستهلكة ، ومن ثم فهي لا تحمل شحنة كافية ومؤثرة ، لمعاناة المشي وسط الزحام ، مثلما يحمله التعبير الذي استخدمه الروائي ، وهي شحنة صادرة بكل وضوح عن تلك التكرارات والتغييرات والاضافات البسيطة على امتداد المنظومة اللغوية التي تتكون منها هذه الجمل القصيرة المتتالية ، ابتداء من الجملة الاصلية : " مشيت وسطهم " الى آخر جملة ترتبط

---

1 - الرواية - ص : 74

بهـــذا الاصـــل (ومشيت فخف الزحـــام) .

وعنـــد تقصي أحـــوال السيرورة التعبيـــريـــة في هـــذه الفتـــرة الصغيـــرة ، استطعنـــا أن نسجـــل المـــلاحظـــات التـــاليـــة :

مشيت وسطهـــم	جملـــة أصليـــة
ومشيت وسطهـم	تكرار مع اضافة بسيطة هي : (الواو)
وأيضا مشيت وسطهـم	تـكرار واضـــافـــة
كذلكوسطهـم مشيت	تكرار واضـافة مع تغيير في الترتيب
ومشيت فخف الزحـام	تكرار مع حذف واضـافـة ثـم انتقال الى جملة أخرى

ومن الاكيد أن التكرار الذي لجأ اليه الروائي في هذه الفقرة ، ليس عشوائيا ، وهو بالتالي لا يؤدي الى تراكمية لغوية ، لا فائدة منها ، ولكن كل تكرار يحمل اضافة الى المعنى الذي تتضمنه الجملة الاصلية ، حتى أن تكرار هذه الجملة في الاوضاع المتتالية يختلف احتلافا بينا عن الدلالة الاولى . فالتكرار الاول يعني الاستمرارية والمعاناة في المشي وسط الناس ، والتكرار الثانيصعد درجة المعاناة والاستمرارية في القيام بالفعل والتكرار الثالث يؤكد الاستمرارية مرة أخرى . مع الاشارة الى الازدحام ، باعتبار أن الروائي جعل كلمة (وسطهم) تأتي قبل الفعل ، والتكرار الاخير يشيرالى ذروة المشي مع انتقاد الزحام .

وهكذا فالكلمتان المكررتان في عدد من الصيغ السابقة لا تحملان معنى واحدا ، ففي كل حالة تضفيان على الجملة معنى جديدا ، وذلك حسب السياق الذي وضعتا فيه ، وبحسب ترتيبهما في الفقرة . أو تعملان على تقوية المعاني السابقة .

يعتبر هذا المثال نموذجا توضيحيا لخاصية من خصائص التعبير اللغوي ، اذ أن " كل جملة

تدخل فبي الاعتبار على أنها اشارة مستقلة بذاتها هي في الواقع قابلة حسب السابقات التي تستعمل فيها ، لارن تحمل دلالات تختلف فيمابينهما كل الاختلاف "(1)

ان الاستفادة من الحيل اللغوية والامكانا ت التي تتيحها للتعبير عن المواقف المتخلفة ، تظهر في الرواية المغربية ، وعند محمد زفزاف ، بشكل واضح ، ، ولكن استمرار هذه الخصائص والاستفادة منها الى أقصي الحدود لم يظهر في الرواية المغربية الاحديثا.

ان الخصائص التعبيرية عند محمد زفزاف تدخل في نطاق الحديث عن اقتحام الغرب - كقيم تعبيرية - للمجال اللغوي عند الروائي ، وهذا الاقتحام يؤكد الجانب الآخر ، وهو حضور الغرب - كقيم فكرية - في فكر الروائي ، مع مراعاة طبيعة هذا الحضور وفق ما حددناه في السابق .

لقد عكست هذه الرواية موقفا انتقاديا تجاه الواقع الاجتماعي المغربي ، ولم يكن ذلك عن طريق التحليل الشمولي للواقع ، وانما جاء ذلك كموقف مبدئي

---

1 - Oswald Ducrot - Idem - P : 81

وكقناعة مسبقة لدى بطل هذه الرواية ، ولذلك ظهر الانتقاد على لسانه حادا ، وهروبيا في الوقت نفسه .

وتنحصر الجوانب الانتقادية للواقع الاجتماعي سواء بالنسبة للبطل الرئيس أم بالنسبة لصديقه في النقاط التالية :

- وجود الفوارق الاجتماعية
- انعدام الحرية الفردية
- التبعية للغرب
- الحرمان الاجتماعي المعيشي والجنسي

وباستثناء ذلك كله فان الرواية قد جسدت واقع الطبقة البورجوازية الصغيرة في المغرب ، كما صورت وضعها المأساوي ، وخاصة أزمة مثقفيها ، وتأرجحهم بين القيم التقليدية والقيم الغربية .

واذا كانت الرواية قد انتهت الى موقف هروبي عن طريق التشبث بالغرب والارتماء في أحضانه ، فانها احتفظت - مع ذلك - بموقفها الانتقادي ، ولم تسقط في

شراك النزعة التبريرية التي ارتأيناها سابقا، ان هروب الشخصية الرئيسة في الرواية الى الغرب لا ينفي كونه قد تعامل مع قيمه بوعي انتقادي أيضا . لذلك لم يكن الغرب اختيارا بديلا للواقع الاجتماعي المغربي بالنسبة له ، مثلما كان الامر بالنسبة لصديقه ، ولكن الغرب ، كان مهربا له فقط .

تقترب الرواية - من هذه الناحية - من الموقف الذي انتهت اليه رواية (الغربة)(1) .

وفي نطاق التعامل مع الغرب بهذه الروح الانتقادية عالجت الرواية بعض القضايا ، كمشكلة الجنس ، الحب والجريمة .

وعلى العموم ان حضور الغرب في رواية (المرأة والوردة) كهاجس ملح ، انعكس بشكل ظاهر أيضا على تقنيات التعبير ، فظهرت الاساليب الجديدة التي وظفها الروائي ، اذ رأيناه يستخدم تقنيات مختلفة كالمسخ والحلم والمحاكمات ، فضلا عن تلاعبه بالتراكيب أو السياق اللغوي ، من أجل التعبير عن المواقف المختلفة .

---

1 - للمؤلف نفسه

الخـــاتمـــــــة

تأتي أهمية الاعمال الروائية لمحمد زفزاف ، من كونها قد حققت نوعا من التراكم في التجربة الروائية المغربية ، وقد صدرت له ست روايات على التوالي : المرأة والوردة (1) أرصفة وجدران (2) قبور في الماء (3) الافعى والبحر (4) محاولة عيش (5) بيضة الديك (6)

وتتجلى دلالة هذا التراكم في حرص الروائي على أن يرتاد مجال الكتابة الروائية ، محاولا تحقيق نوع من التطور في مفهومه للكتابة ، ورؤيته للعالم فهو من جهة ، قد استطاع أن يرسخ أسلوبه المميز وأن يجعل رواياته تعكس تكرارية بعض المواقف والنماذج الاجتماعية ، كما استطاع - من جهة أخرى - في بعض رواياته أن يكسر هذه التكرارية باقتحام

---

1 - سلسلة الكتاب الحديث - منشورات غاليري - بيروت 1972

2 - سلسلة كتابات جديدة ، منشورات وزارة الاعلام - العراق

3 - الدار العربية للكتاب - 1978

4 - الدار البيضاء - 1979

5 - نشرت مسلسلة في مجلة أقلام العراقية - ع2 - س 1980

6 - منشورات الجامعة - الدار البيضاء - 1984

فضاءات جديدة ، وهذا على الرغم من أن مسارتجربته الروائية قد عرف بعض الانكسارات ، من خلال روايات ضعيفة فنيا .

على أن ما يهم الدارس هو استمرارية الحضور الروائي لهذا الروائي ، ورصد مؤشرات وعلامات هذا الاستمرار ، ولاسيما أن لروايات محمد زفزاف سماتها الخاصة في مجال الرواية المغربية ،فهو لم يتجه نحو استعادة بعض تجليا ت الحركة الوطنية من خلال رواية الحقبة ، كما فعل روائيون مغاربة آخرون (1) ، ولكنه - كروائي ينتمي الى جيل الاستقلال - ارتبط ببعض مظاهر التحول الاجتماعي والسياسي للبلاد ، ومن خلال نماذج اجتماعية تعبر عن أزمة المثقف ، داخل مجتمع متخلف ، أو أخرى ، شعبية مقهورة ومحكومة بسلطة السياسة وسلطة التقاليد الاجتماعية .

وبذلك فالكتابة تمتلك - عنده - رؤيتها الخاصة للعالم وهي رؤية ، وان تمظهرت بالطابع الانتقادي، فهي تستحق الكثير من النقاش ، لأن الرؤية السياسية

---

1 - منهم على الخصوص : عبد الكريم غلاب - مبارك ربيع...

الانتقادية في بعض رواياته ، تتحقق من خلال خطاب فوقي يلقيه السارد ، ولا تمارسه الشخصيات الروائية كسلوك يوميّ من خلال فعل التغيير .

ولعل هذه الشخصيات الروائية ، وهي تنتقد الاوضاع انما تقع في تكريسها ، بتوجهها السلبي ، وباغراقها في الجنس والحشيش ، وفي كل مظاهر التفسخ الاخلاقي التي تتبرر نفسها بالتحرر من عقدة الاخلاق والتقاليد الموروثة .

وفي ضوء هذا التصور ، يمكن تفسير شبكة العلائق الاجتماعية التي تكوّن العالم الروائي وموقفها من السياسة والدين والمجتمع .

أما الجنس في أعمال محمد زفزاف الروائية ، فهو يشكل نقطة التقاء محورية بين معظم الروايات كما يشكل علامة لها دلالتها الخاصة في الموقف من العالم بكل المستويات الغريزية والعاطفية ، وارتباط هذه المستويات بشبكة العلاقات الاخرى .

الاّ أن الجنس والحشيش والرغبة في اكتشاف الغرب واختراق محرمات مجتمع (الطابو) المغربي ، تُبقي

العنصر الاكبر في رواية (المرأة و الوردة) ، حيث نلاحظ أن هذا العنصر يستمر ويتنامى بتفاصيل حكائية مختلفة داخل الرواية .

تتنامى تجربة الروائي ، كما لاحظنا ، انطلاقا من الموقف السلبي العدمي من العالم ، نحو تصعيد هذا الموقف الى القضايا السياسية والاجتماعية التي تهم البلاد ، (ومن وجهة نظر سبق أن وصفناها بالخطاب الفوقي) الى جانب التقاء هذا الموقف بالنزوع نحو التعبير عن القضايا الجنسية والغريزية التي يحاول النص الروائي أن يوهمنا ، من خلال طرحها ، وبوسائط اباحية ، بأنه يقف ضد الاخلاق والعرف الاجتماعي السائد ، كما أنه يسعى الى تفجير طاقات الفرد وتحريره من الكبت والاحباط .

ان هذه المواقف الثلاثة هي ما يشكل نقط الارتكاز الاساسية فمي رواية (المرأة و الوردة) .

ولقد رأينا كيف أن عالم هذه الرواية ، ينبني على رصد المواقف الاجتماعية والسياسية والثقافية ، من خلال شخصية واحدة ، مركزية ، تساهم في بلورة الموقف من العالم .

كما أن تجربة الروائي قد تراوحت بين التعبير عن المأزق الفردي ، لنموذج المثقف البورجوازي الصغير، وبين الانفلات نحو ملامسة الهموم الاجتماعية عند نماذج شعبية ترتبط بفضاء الطبقات الكادحة .

ونلاحظ أن هذا التباين قد ساعد الروائي على الخروج من مأزق تكرار بنياتها الدلالية الاساسية وذلك بالرغم من تنوع الحكاية، بين رواية وأخرى ، الا أن العالم الروائي عنده قد ظل مرتبطا ببعض السمات الاساسية التي تشكل محور الكتابة كالجنس ونقد السلطة ورفض الطبقة البورجوازية

كما نلاحظ حرص هذه الرواية على توظيف شخصيات أجنبية داخل سيرورة الاحداث، وتوجه تفاصيلها ورؤيتها للعالم.

ولعل ما يفسر هذه الظاهرة ، هورغبة الروائي (محمد زفزاف) في ايجاد توافق اجتماعي خارج البنية الاجتماعية التقليدية ، والتطلع الى تحرر كامل لايحقق نموذجه الا في الغرب .

كما لاحظنا أيضا ، أن المنظور الاجتماعي للمرأة ظل مهيمنا على موقف بطل الرواية (محمد) ، اذ بالرغم

من رغبته في التحرر من القيم الاخلاقية والتقاليد العرقية فان نظرته الى المرأة ، ظلت نظرة أخلاقية مكبلة بالقيم والتقاليد المغربية ، ومن ثم فهو يمارس على المرأة نقدا أخلاقيا ، عندما تمارس الخيانة الزوجية ،

كما نلاحظ حضور الروائي (محمد زفزاف) في رواية (المرأة و الوردة) ، وخاصة حين يطرح في نهاية الرواية مشروعه الخاص بالكتابة ، بعد ما مني بالفشل في محاولة تهريب الحشيش.

ويتجلى ذلك الحضور ممثلا في شخصية (محمد)، فضلا عن أن هناك اشارات أخرى تجعل الروائي حاضرا بشكل أو بآخر، وهو - عموما - حضور لايوازي عملية الكتابة نفسها ولايعطي النص الروائي امكانية مساءلة ذاته ، وطرح أسئلة الكتابة من الداخل .

هذه الرواية القصيرة تشغل البياض بما يقارب المائة صفحة في المتوسط ، وهي بهذا الحجم ، لاتسمح للاحداث أن تنمو وتتسع . ومن المفترض أن يفرض عليها هذا الحجم نوعا من الاقتصاد والتركيز ، الاّ أن ما يلاحظ هو اعتماد ها على الطابع الحواري ، وتعلقها ببعض

(المورفولوجي) يتحقق داخل رواية (المرأة والوردة) ، لكنه لايرقى الى مستوى الانشغال داخل الحكاية ، ليؤكد علاقته السيميائية ، وترميزه للفضاء الروائي ، وتركيزه على الشخصيات الواردة في المتن الروائي ، والتي تمحورت على شتى الاتجاهات وشكلت بؤرا ووحدات روائية ، حاولنا - قدر الامكان - التركيز عليها في هذه الدراسة .

المصـــادر و المـراجـــع

المصادر :

1 - محمد زفزاف :

- المرأة والوردة - الشركة الوطنية للناشرين المتحدين - ط2 - الدار البيضاء 1986
- أرصفة وجدران - منشورات وزارة الاعلام العراقية - د. ت
- قبور في الماء - الدار العربية للكتاب - 1978
- الافعى و البحر - الدار البيضاء - د.ت .
- محاولة عيش - مجلة أقلام - العراق - 1980
- بيضة الديك - منشورات الجامعة - الدار البيضاء - 1984

المراجـــع :

2 - ابـن منظـــور :

- لسـان العرب - دار لبنـان - بيروت - م 2 -

3 - ميخائيـل بـاختين :

- الخطاب الروائي - ترجمة محمد برادة - منشورات الجامعة للبحث العلمي - الرباط 1971

- الروايـة والملحمـــة - ترجمة جمال شحيد - معهـد الانمـاء العربي - 1982

4 - حليـم بركـات :

- الروايـــة العربية ورؤيـة الواقع الاجتمـاعي - ط2 - عـام 1980 - د.ت

5 - عزالدين التازي -(وآخرون):

- الروايـة المعربية ، واقع وآفاق - دار ابن رشـــد - بيروت - 1981

- السرد في روايات محمد زفزاف - دار النشر المغربية - 1985

6 - محمد عابد الجابري :

- من أجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية - دار النشر المغربية 1977

7 - عباس الجراري :

- آفاق التراث الشعبي - دار الامنيية - الرباط

8 - لحمداني حميد :

- الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي - دار الثقافة - الدار البيضاء 1985

9 - عبدالكبير الخطيبي :

- النقد المزدوج - دار العودة - بيروت 1980

10 - خليل أحمد خليل :

- نحو سوسيولوجية الثقافة الشعبية - دار الحداثة - بيروت - 979-

11 - محمد زغلول سلام :

- دراسات في القصة العربية الحديثة ، أصولها اتجاهاتها أقلامها - منشأة المعارف - الاسكندرية

12 - محمد السمرة :

- في النقد الادبي - الدار المتحدة للكتاب 1974

13 - عبد الله العروي :

- أزمة المثقفين العرب - ترجمة ذوقان قرقوط - المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1977

14 - سعيد علوش :

- معجم المصطلحات المعاصرة - منشورات المكتبة الجامعية - 1984

15 - عثمان لبيب فراج :

- الشخصية والصحة النفسية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 1979

16 - سمر الروحي الفيصل :

- ملامح في الرواية السورية - منشورات اتحاد العرب - دمشق

17 - غسان كنفاني :

- ماتبقى لكم - مؤسسة الابحاث العربية بيروت - 1983

18 - جورج لوكاتش :

- الرواية كملحمة بورجوازية - ترجمة جورج طرابيشي دار الطليعة - بيروت 1979

19 - نجيب محفوظ :

- أتحدث اليكم - دار العودة - بيروت 1977

20 - أحمد المديني :

- فن القصة القصيرة بالمغرب - دار العودة - بيروت 1982

21 - محمد مصايف :

- النقد الادبي الحديث في المغرب العربي - الموسسة الوطنية للكتاب - الجزائر ط2 - 1984

22 - ابراهيم مصطفى وآخرون :

- المعجم الوسيط - مطبعة مصر - القاهرة - ج1 - 1980

23 - محمد يوسف نجم :

- الشخصية الانسانية في القصة (فن القصة) دار الثقافة - بيروت - د . ت

24 - حامد النساج :

- بانوراما الرواية العربية الحديثة - المركز العربي للثقافة والعلوم - القاهرة 1982

25 - حسني نصار :

- صور ودراسات في أدب القصة - دار مصر للطباعة - القاهرة د.ت - ص : 10

26 - محمد غنيمي هلال :

- النقد الادبي الحديث - مكتبة الانجلو مصرية

ط5 - القاهرة 1971

27 - سعيد يقطين :

- القراءة والتجربة - دار الثقافة

الدار البيضاء

28 - Oswald ducrot - Qu'est ce que le structuralisme

Ed ; Seuil ; Paris 1968

29 - أحمد ابراهيم :

- البطل المعاصر في الرواية المصرية -

وزارة الاعلام العراقية - بغداد 1973

30 - محمد الدوغموسي :

- الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي -

مطبعة افريقيا الشرق - الدار البيضاء 1990

31 - محمد السويرتي - :

- النقد البنيوي والنص الروائي - مطبعة افريقيا

الشرق - الدار البيضاء - 1991

32 - بشير بويجرة محمد :

- الشخصية في الرواية الجزائرية (1970 - 1983)

ديوان المطبوعات الجومعية - الجزائر 1986

الدوريـــات :

1 - مجلـة الاداب - ع 12 - س 27 - 1979

2 - مجلـة أقـلام - (مغربية) - ع4 - نوفمبر 1972

3 - " " " ع 6 - 1977

4 - " ع 5 - يونيو 1978

5 - " ع 9 - أبريل 1979

6 - " " (عراقية) ع 11 - 12 1- 1986

7 - " الطريـق - (لبنانية) - ع4 - س 1981

8 - " العلوم الاجتماعيـة (مغربية) - ع2 - م 17 - صيف 1989

9 - " الفصول (مصرية) - ع4 - م 2 - س 1982

10 - " الفيصل (سعودية) - ع37 - س1980

11 - مجلة الكاتب العربي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ع4 - س 1984

12 - المحرر الثقافي - (مغربية) - ع يونيو 1979

13 - مجلة المشروع (مغربية) - الرباط

14 - الملحق الثقافي (مغربية) - ع 19 - الاحد 30 غشت 1987

15 - الموقف الادبي - (سورية) - ع 104 - 105 - س 1979 - 1980

القهـــــــــرس

المقـــدمـــة : ..... أ - ز

الفصـــل الاول : الـروايـة العربيـة المغربية .....1 - 39

أ - نشأة الرواية العربية وتطورهـا .....2 - 9

ب - نشأة الروايـة العربية المغربية وتطورهـا..... 10 - 39

1 - مرحلـة التقليـد

2 - مرحلـة التجـريـب

3 - الرواية المغربيـة وصورة المجتمع

الفصـــل الثـاني : .....40 - 67

مفهـوم الشخصيـة وبنيتهـا في الرواية

1 - مفهـوم الشخصيـة .....41 - 45

2 - بنيـة الشخصية في العمل الروائي ..... 45 - 67

الفصـــل الثالث : ..... 68 - 122

بنية الشخصية في رواية (المرأة و الوردة)

- الشخصية وبنيتهـا الاجتماعية

- الشخصية والهـاجس الغربي

- الشخصية والانحـــلال الخلقي

- الشخصية وعالم الجنس

- الشخصية زالاستلاب

الخاتمة : ..... 123 - 131

المصادر والمراجع : ..... 132 - 140

الفهرس : ..... 141 - 143